الجنس الثالث

جمانة حدّاد



نوفل

الجنس الثالث

ما أوصاني به أفلاطون قبل أن يموت

جمانة حدّاد



نوفل

الجنس الثالث

صدرت عام 2015 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2015
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **Stephen Carroll / Trevillion Images ©**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
متابعة النشر: **رنا حايك**
طباعة: **53Dots**

ر.د.م.ك.: 978-614-438-383-4

إلى منير وأنسي، مجدّداً وعلى الدوام

إلى ماتيو وصوفيا، منّي من دون أن يكونا لي

إلى عناية، الابنة الّتي لطالما انتظرتُها

إلى روان وخضر وريانا وماري

وإلى كلّ الفتيات والفتيان العرب

الّذين سيزهر الربيع الحقيقيّ – الربيع

الإنسانويّ – في عقولهم وقلوبهم وحيواتهم

غداً،

نعم،

أخيراً.

«لتكنْ إيثاكا نصب عينيك دائماً،
ليكنْ بلوغها غايتك.»

قسطنطين كفافيس (إيثاكا)

«لنبحثْ عمّا وعمّن ليس جحيماً في قلب الجحيم،
ولنفسحْ له، ولنجعله يدوم.»

إيتالو كالفينو (المدن اللامرئية)

«ليست القصّة في الكلمات.
القصّة في الكفاح.»

بول أوستر (ثلاثيّة نيويورك)

مقدّمة لا بدّ منها

«مـا دمـتُ هـذا أو ذاك، لا أستطيع أن
أكون الكلّ.»

مايستر إيكهارت

... أسئلةٌ كثيرة شغلتني في الآونة الأخيرة، ولمّا تزل.

أسئلةٌ مزعجة؛ أسئلةٌ مُقِضّة؛ أسئلةٌ من نـوع: أعضاء تنظيم الدولة الإسلاميّة، الّذين يذبحون الناس يوميّاً في سوريا والعراق باسم إلههم، هل يمكن أن يُعَدّوا «بشراً»؟

مقاتلو الحروب الصليبيّة، الّذين نهبوا ونحروا وحرقوا الأخضر واليابس في العصور الوسطى، أيضاً باسم إلههم، هل يمكن أن يُعَدّوا «بشراً»؟

عناصر حركة طالبان الّذين – في عداد ما ارتكبوا من مجازر – أعدموا 132 طفلاً بريئاً في مدرسة في مدينة بيشاور، باكستان، يوم 16 كانون الأول/ديسمبر 2014، هل يمكن أن يُعَدّوا «بشراً»؟

جماعة بوكو حرام الّذين – في عداد ما ارتكبوا من مجازر – قتلوا أكثر من ألفي شخص في مدينة باغا، نيجيريا، بين 3 و7 كانون الثاني/يناير 2015، هل يمكن أن يُعَدّوا «بشراً»؟

مسؤولو تنظيم القاعدة الّذين – في عداد ما ارتكبوا من مجازر – أمروا بقتل رسّامي كاريكاتور من صحيفة «شارلي إبدو» في السابع من كانون الثاني/يناير 2015 لأنّ هؤلاء «سخروا» من نبيّهم، هل يمكن أن يُعَدّوا «بشراً»؟

ماذا عن الجيش العثمانيّ الّذي أباد ما يزيد على مليون ونصف مليون أرمنيّ؟ ماذا عن منفّذي مذابح رواندا؟ ماذا عن أدولف هتلر وهيرمان غورينغ وجوزف غوبلز؟ ماذا عن بول بوت؟ كيم إيل سونغ؟ حافظ وبشّار الأسد؟

هل أتشارك المكوّن الجينيّ والقاسم الإنسانيّ نفسه، مع هؤلاء القتلة وأمثالهم؟ هل ننتمي إلى جنسٍ بشريّ واحد؟ أليست هنالك «نسخة» أخرى، راقية، من هذا الجنس البشريّ، يمكنني، وسواي ممّن ليسوا كهؤلاء المجرمين، أن ننتسب إليها؟

***

شغلتني أيضاً، وتشغلني، أسئلةٌ من نوع آخر.

كتب الشاعر الفرنسي لويس أراغون في روايته «مجنون إلسا» الصادرة في عام 1963 جملةً شهيرة لطالما لفتتني واستفزّتني: «مستقبل الرجل هو المرأة».

حسناً. جميلٌ. بل رائعٌ للبعض. لكن لا. لم تقنعني تلك الجملة تماماً، رغم أنّها تمتدح الجنس الّذي أُحسَب عليه. لم تعجبني فكرة أنّ المرأة ستكون «مستقبل الرجل»، لأنّ ذلك يعني، في ما يعني، أنّ الرجل سيصير ماضياً، بائداً، منقرضاً. ليس للمرأة، في رأيي، أن تنوب

عن الرجل. ليس لها أن ترثه. ليس لها أن تأخذ موقعه في الصدارة. ليس لها أن تنتقم منه. ليس لها أن تلغيه. ليس لها أن تتخطّاه. ليس لها أن تؤسِّس نظاماً سلطوياً ظالماً يحلّ مكان نظامه البطريركيّ المجحف. ليس لها أن تكون توليفة منقّحة ومحسّنة ومتطوّرة عنه. كفانا حروباً إلغائيّة عبثيّة وعقيمة! أليست هنالك «نسخة» أخرى، راقية، من الجنس البشريّ، يمكننا نحن الاثنين، الرجل والمرأة على السواء، أن ننتسب إليها؟

***

ثمّ وجدتُها.

تطلّب الأمر أربعة وأربعين عاماً من البحث، لكنّي، أخيراً، نجحت: تلك النسخة الراقية من الجنس البشريّ الّتي أنشُدها، ليست سوى «الإنسان الإنسانويّ». أي الإنسان مستوعباً اختلافاته ومتخطّياً إيّاها (لا طامساً لها). الإنسان مستوعباً جنسه ومتخطّياً إيّاه (لا رافضاً له). الإنسان مستوعباً خصوصيّاته ومتخطّياً إيّاها (لا متنكّراً لها). أيضاً وخصوصاً، الإنسان مستوعباً ومتخطّياً كلّ ما يبثّ الكراهية ونزعة الأذيّة فيه. الإنسان مجرّداً من كلّ تصنيف، ومن كلّ تأثير، إلّا من إنسانويّته.

في وقت يزداد فيه الإنسان «توحّشاً»، وتحتلّ الرؤوس المقطوعة فضاءاتنا الداخليّة والخارجيّة، ويتوسّع الرعب ككونٍ موازٍ يهدّد بابتلاعنا جميعاً، «هذا» هو المخرج. «هذا» هو «الجنس الثالث» الّذي علينا جميعاً أن نصبو إليه، وأن نكونه.

لماذا الإنسان الإنسانويّ؟ لأنّه مستقبلنا بقدر ما هو ماضينا. أصلنا بقدر ما هو قَدَرنا. جامعنا الواحد الأحد. لأنّه الما قبل والما بعد. الفوق والتحت. ولأنه، خصوصاً، «خلاصنا» الحقيقيّ الوحيد

كجنس بشريّ، أي «إلهنا» الحقيقيّ الوحيد: الإله الموجود – نائماً أو صامتاً أو خائفاً – في كلّ واحد منّا، الّذي ينبغي لنا، بإلحاح، أن نوقظه ونحييه ونظهّره ونشجّعه.

يمكن الإنسان الإنسانويّ أن يكون أنثى، أو ذكراً، أو الاثنين معاً، أو أن لا يكون أيّاً من هؤلاء. يمكنه أن يكون شابّاً أو عجوزاً أو بين بين؛ غنيّاً أو فقيراً أو من الطبقة الوسطى؛ أسود البشرة أو أسمرها أو أبيضها؛ عربيّاً أو غربيّاً؛ مؤمناً أو غنوصيّاً أو لاأدريّاً أو ملحداً؛ محبّاً للجنس الآخر أو مثليّاً أو مزدوج الميول الجنسيّة أو لاجنسيّاً أو أيّاً من الفوارق الكثيرة بين هذه التعريفات المختلفة. المحظور الوحيد هو «اللاإنسانويّة». الباقي كلّه لا يهمّ: لأنّ الإنسان الإنسانويّ هو الجوهر الجامع والشامل والمشترك الموجود تحت هذه القشور وسواها. هو الذهب تحت الوحل. ولم يكن أبرع منّا، على مرّ العصور، في إنتاج القشور والوحول وطمس جوهرنا تحتها.

الإنسان الإنسانويّ، أجل، بكلّ بساطة. إنّه الجواب الأفضل، المفحِم، عن كلّ الأسئلة الّتي ترمي إلى الزجّ بنا في أدراج، وإلى تقويمنا وتفرقتنا: مَن أنتَ؟ ما اسمكَ؟ من أين أتيتَ؟ إلى أين أنتَ ذاهب؟ ما عمركَ؟ مَن أبوكَ وأمّكَ؟ كم من المال تملك؟ ما عرقكَ؟ ما دينكَ؟ ما جنسكَ؟ ما توجّهكَ الجنسيّ؟ ما آراؤكَ السياسيّة؟ ما شهاداتكَ؟ ما عملكَ؟ إلخ.

أنا إنسانويّ، أي أنا حرّ؛ أنا مُحِبّ؛ أنا مهتمّ؛ أنا كريم؛ أنا شفوق؛ أنا محترَم؛ أنا محترِم؛ أنا شجاع؛ أنا عادل؛ أنا معنيّ؛ أنا منفتح؛ أنا مستقلّ؛ أنا أبيّ؛ أنا متسامح؛ أنا متعاون؛ أنا موهوب؛ أنا كدود؛ أنا طموح؛ أنا واعٍ؛ أنا متنبّه؛ أنا أفكّر؛ أنا أعبّر... أنا إنسانويّ، أي أنا ضدّ اللامبالاة، ضدّ اللامساواة، ضدّ الأحكام المسبّقة، ضدّ الصغائر، ضدّ التطرّف، ضدّ الكره، ضدّ ضيق العقول، ضدّ الخنوع، ضدّ الخبث، ضدّ

العنصريّة، ضدّ الطبقيّة، ضدّ اضطهاد المثليّين وسواهم من الأقليّات، ضدّ الوحشيّة، ضدّ الجهل، ضدّ الكسل، ضدّ الأذيّة، ضدّ القتل، ضدّ الإذعان، ضدّ القطيعيّة، ضدّ الاحتقار، ضدّ الاستغلال، وهكذا.

***

تنبيه لا بدّ منه: لا يندرج هذا الكتاب في الوعظ، أو في النصح، بل هو على النقيض منهما تماماً. إنّه يتسلّل إلى البنية التحتيّة للإنسان، حافراً في أعماقها، مقترحاً الأسس الّتي يجب أن تجسّد حقيقة الإنسان في حياته الشخصيّة وفي حياته العامّة على السواء، كما حقيقة القانون والحقّ، من أجل قيام مجتمع يحتفي بالكرامة البشريّة. تالياً، لا تفهموني خطأً: ليس هذا مانفيستو ساذجاً مبسّطاً من نوع «أحبِبْ عدوّك». لستُ طوباويّة، ولا رومنطيقيّة، ولا «غاندويّة» مسالِمة، ولا غير عملانيّة. الإنسان الإنسانويّ لا «يدير الخدّ الأيسر»: هو يحارب، طويلاً وبقوّة، بقدر ما يتطلّب الأمر من وقت ومن قوّة. الإنسان الإنسانويّ يشهر رأيه بفروسيّة، ويتكلّم، لا يسكت. يقول لا بشجاعة، لكنّه أيضاً يقول نعم بشجاعة، عندما تقنعه الـ«نعم» أكثر. الإنسان الإنسانويّ ليس مضحّياً بذاته: بل يعرف أنّ عليه أن يحبّ نفسه أولاً، وأن يضع ذاته في الأولوية، لكي يستطيع أن يحبّ الآخر ويساعده. الإنسان الإنسانوي يواجه: لا يتلاعب ولا يبتزّ، ولا يقبل بأن يُتلاعَب به ويُبتزّ. الإنسان الإنسانويّ يخطّط: لا يكتفي بأحلام اليقظة والتمنّيات والتنهّدات، ولا بانتظار أن تتحقّق الأمور من تلقاء نفسها. الإنسان الإنسانويّ يعيش حياته، لا يؤدّيها. الإنسان الإنسانويّ ليس قدّيساً ولا شيطاناً، لا بطلاً ولا بطلاً مضادّاً: هو خارج لعبة الأبيض والأسود هذه. في اختصار، هو ليس كانديد الساذج، ولا خالة سندريلّا الشرّيرة. ليس

جيمس بوند الّذي لا يُقهر، ولا اليائسة إيما بوفاري. ليس سوبرمان البطل، ولا شهرزاد المساوِمة...

الآن أخبِروني: ألا نريد كلّنا – كلّنا تقريباً – أن نكون هذا الإنسان الإنسانويّ؟ ألا نستحقّ حقّاً أن نكونه؟

***

قد يوحي «الجنس الثالث» بأنّه يندرج في باب الأدب «الإرشاديّ»، لكنّه ليس كذلك. هو ليس أدباً إرشاديّاً، ولا توجيهيّاً. أكرّر: هو لا يعظ، ولا يقدّم النصيحة. إنّه كتابٌ يطيح – ولكن سلميّاً وبطريقة حضاريّة وعقلانيّة – كلّ الفلسفات والأساليب التربويّة القائمة على مثلّث العائلة والمدرسة والدين، الّتي أعطت نتائج معاكسة لها، على مرّ الأجيال. ليس أمامنا سوى أن نتّعظ ممّا نعاينه في حياتنا من أعمالٍ رهيبة هي حصيلة هذه التربية الممجوجة والمتخلّفة.

«الجنس الثالث» هو سردٌ لسبع رحلات شخصيّة جدّاً، ولما رافقها من عثرات ودروس وآفاق وتأمّلات: سردٌ لا يدّعي أنّه مفيدٌ للآخرين حكماً، أو مناسِب لهم أو قابل للتطبيق على حيواتهم. لكنّه بكلّ بساطة اقتراح متواضع لخريطة طريق، واحد من اقتراحات عدّة سبقته، وأخرى سوف تليه لا محالة. نبرة الكتاب حميميّة واعترافيّة، لا أمريّة ولا فوقيّة. ولكن هل يأمل هذا العمل أن يُلهِم البعض، أو أن يضيء بقعةً من عتمةٍ في مكانٍ ما، داخل عقلٍ ما؟... أرجو ذلك.

يمكن «الجنس الثالث» أيضاً أن يوحي بأنّه عمل من نوع الفانتازيا أو الخيال العلميّ. لكنّه ليس كذلك. هو يصبو على الأصحّ إلى الانتماء إلى نوع الخيال الاستشرافيّ، تماماً مثلما استطاع الإنسان غزو الفضاء وسواه من الأهداف الّتي كانت تبدو مستحيلة في الظاهر، بعدما كانت تنبّأتْ بها أعمالٌ أدبيّة وسينمائيّة وُسِمت بالفانتازيّة.

يمكن «الجنس الثالث»، أخيراً وليس آخراً، أن يوحي بأنّه إيماءٌ إلى كتاب «الجنس الثاني» لسيمون دو بوفوار. إنّه كذلك بمعنى ما، ولكن ليس تماماً. وهو ليس عن الجنس الثالث الّذي باتت تعترف به بعض الثقافات والبلدان (على غرار الهند وبنغلادش وتايلاند)، والّذي قد يشير إلى الفرد غير المحدَّد الجنس أو الخنثى أو سواهما من الهويّات الجنسيّة الّتي تُعتبر غير نمطيّة. الجنس الثالث المقصود في هذا العمل يصبو إلى أن يسمو بالخطاب الجندريّ والنسويّ إلى خطاب إنسانويّ جامع للكلّ. يريد أن يقول إنّ الإنسان الإنسانويّ هو الجنس الجديد، وإنّ الإنسانويّة هي النسويّة الجديدة (مثلما هي النظام الأخلاقيّ الجديد أو الفلسفة السياسيّة الجديدة أو النموذج الاقتصاديّ الجديد إلخ.).

لا تزال الحركات والإيديولوجيّات النسويّة في الزمن الراهن تُعتبَر شأناً يخصّ المرأة حصراً، على الرغم من الرحابة والتنوّع اللذين باتا يسمانها. ولكن، بعد خطاب الإنسان/المرأة والإنسان/الرجل الانقساميّ والتفريقيّ، ها قد حان زمن خطاب الإنسان الإنسانويّ، لا ليتميّز عنهما ويميّز ضدّهما، بل ليغنيهما، ويكمّلهما، ويمثّلهما معاً، هما والآخرين... والآخرين خصوصاً: أولئك الّذين لا يقعون ضمن أيّ تصنيف «لائق» أو معترَف به. الجنس الثالث، إذاً، ليس جنساً ثالثاً بحقّ، بل هو الأول والثاني والأجناس الأخرى كلّها في آن واحد.

يريد هذا العمل تالياً أن يموضع نفسه خارج جدليّة الجندر: تحديداً في مساحة منفصلة أو متحرّرة من هذه الجدليّة كنتُ شخصياً غير واعية لوجودها وتلمّستُ طريقي إليها تدريجاً. هو يطمح إلى التعبير عن حاجتنا الملحّة إلى إدارة ظهورنا لكلّ التصنيفات القائمة (الجنس البيولوجيّ، التوجّه الجنسيّ، الهويّة الجنسيّة، الخ...) الّتي تسمّم حقيقتنا وتحصرها وتحاصرها، وإدارة ظهورنا أيضاً للتحليلات

المفصّلة الّتي ترافق تلك التصنيفات: تحليلات غالباً ما يكون هدفها الوحيد وضع تسمية محدّدة على ظاهرةٍ ما أو تجربة معيّنة تجرّأت على أن تسبق المتوقَّع أو أن تتحدّاه، إلى حدّ أنّها تخنق هذه التجربة وتأسرها في زنزانة الخطابيّة والتبرير والتمحيص السيكولوجيّ.

إلّا أنّ الإنسان الإنسانويّ لا يحتاج إلى ختم موافقة.

هو يعيش ذاته، وكفى.

***

توضيحٌ أخير لا بدّ منه: لقد قسّمتُ الكتاب سبعة فصول، يلقي كلٌّ منها الضوء على ميزة كان ينبغي عليّ شخصيّاً تغذيتها وتطويرها وتحقيقها بغية إحياء هذا الإنسان الإنسانويّ فيَّ. هذه الميزات هي: المحارِب، الصادق، المفكِّر، المُنصِت، المتعاطِف، الأبيّ والمتمرّد.

كلّ فصل يتألّف بدوره من ثلاثة أقسام: القصّة، المَقصد والمُحاوَرة.

القصّة هي سردٌ لتجربة في حياتي مرتبطة بالميزة/الموضوع؛ سردٌ يهدف إلى إظهار الجرح الحقيقيّ الّذي نزفت منه الأفكار والتطلّعات والأطروحات. تالياً، أرجو أن تغفروا حضور الأنا النافر في هذا القسم.

المَقصد هو وصفٌ شاعريّ للمكان الّذي من شأن الرحلة أن تقودنا إليه.

أمّا المُحاوَرة فهي نقاش قائم على حجج وحجج مضادّة: نوع من التبادل الفكريّ الحيويّ مع الوسواس الّذي يفحّ في رؤوسنا جميعاً، وغايته توفير رؤية شاملة من كلّ الزوايا، أي تلك الإيجابيّة، أو الـ«مع»، كما تلك السلبيّة، أو الـ«ضدّ». قد تكون البراهين والاقتناعات المعروضة في هذا القسم غير مرضية للبعض، أو حتى مرفوضة تماماً

منهم، وهذا متوقَّع، لكونها ناجمةً عن أفكاري أنا، ووساوسي أنا، وعن منهجيّتي الخاصّة في التفكير. لا ضير في ذلك، فالهدف منه عرض أهمّية ممارسة تمرينٍ كالمساءلة، لا فرض هذا الأسلوب المعيّن في المساءلة، وهذه الخلاصات بالذات، دون سواها.

(على الهامش، كم كان بودّي، في هذا القسم تحديداً، وفي الكتاب كلّه عموماً، أن أتفادى شروط المذكّر والمؤنّث وقواعدهما، وأن أستطيع التوجّه إلى الإنسان الإنسانويّ، أو الكلام عليه، بضمائر تشمل الأجناس كلّها ولا تفرّق بينها. لكنّ هذا، للأسف، لا يزال غير متوافر في لغتنا. تالياً، فرض الـ«هو» نفسه أحياناً عند الحديث عن الإنسان، لأنّ الإنسان اسم مذكّر في اللغة العربيّة، رغم أنّه قد يدلّ على المرأة مثلما يدلّ على الرجل؛ وفرضت الـ«أنتِ» نفسها أثناء مخاطبة الوسواس لي، لأنّني، من بعد إذنكم، أُعَدّ «أنثى». لكنّي أرجو من القرّاء تخطّي هذه القيود وموجباتها، مثلما حاولتُ بدوري أن أتخطّاها بينما كنت أفكّر وأكتب. أيضاً، أرجو من المفسِّرين «المُفتنين»، وليس أكثر منهم، عدم اعتبار توجّهي إلى «الوسواس» الّذي في رأسي بصيغة المذكّر، دليلاً على «كرهي» للرجل أو احتقاري له: الوسواس، بكلّ بساطة، اسم مذكّر هو الآخر في اللغة العربيّة (وأنا، صراحةً، «أحسد» المذكَّر والذكور عليه). كذلك، زاد من اقتناعي باعتماد هذه الصيغة، إيماني بأنّ كلّ مؤنّث يحمل مذكّراً في وعيه، يخاطبه، والعكس صحيح).

أخيراً، ينتهي كلّ فصل بوصيّةٍ كان يمكن أفلاطون أن يهديها إلينا وهو على سرير موته.

غنيٌّ عن القول إنّ الميزات الواردة هنا لا تدّعي أنّها شاملة، ولا هي تلغي أهمّية الميزات الإنسانويّة الأخرى الممكنة. هي واردة هنا

دون سواها لأنّها – أكرّر – كانت حيويّة لي شخصيّاً، بسبب حياتي ونقائصي وأهدافي. يمكنكم تالياً أن تستلهموا ميزات مختلفة عنها.

أيضاً، التسلسل الّذي ترد فيه الفصول لا يعكس وجهة محدّدة أو أهمّية تصاعديّة: جميعها مهمّ وحيويّ بالقدر نفسه. ليس هناك تدرّج صارم ومرسوم سلفاً لتحقيق مشروع الإنسان الإنسانويّ، لأنّ صعوبة كلّ مرحلة تتغيّر بناءً على كلّ فرد، بحسب نشأته وتجاربه وظروفه، وبحسب خصاله. بناءً على ذلك، يمكن السعي إلى تحفيز القدرات المذكورة وفق هذا التسلسل أو سواه، أو جميعها بالتزامن. يمكن أيضاً استبدالها بقدرات مختلفة أكثر توافقاً مع شخصيّاتكم وحيواتكم.

***

ولكن، ما علاقة أفلاطون بالقضيّة؟ وما قصّة لقائي به «قبل أن يموت»؟

فيلسوف الفلاسفة، مثلما يسمّونه، «لفظ أنفاسه الأخيرة بسلام في سريره في أثينا، بينما كانت فتاة تعزف الناي على مسامعه». ولكن ليس قبل أن يستدعيني إلى فراش موته، ليخبرني أمراً أو اثنين كانا يثقلان على صدره، تحديداً حول جمهوريّته أو مدينته الفاضلة. سألتُه: «لماذا استحضرْتَني يا معلّم؟».

– لأنّني أدركتُ أنّني لم أقل كلّ ما كنت أريد قوله في «الجمهوريّة».

– ولكن لماذا أنا؟ في هذا العالم كثرٌ ممّن يستحقّون ثقتكَ أفضل منّي: فلاسفة ومفكّرون انكبّوا سنوات طويلة على دراسة مُحاوَراتكَ وتمحيص أفكاركَ ورؤاكَ، بينما أنا قد نفرتُ منها مذ قرأتُ في كتابكَ العاشر هجومكَ على الشعر والشعراء وإقصاءكَ إيّاهم من «المدينة». ألا ترى معي أنّني غير مستحقّة عطاياك؟

– ليس لناقل الرسالة أن يشكّك في أسباب اختياره دون سواه. له أن ينقل فحسب. الغيمة لا تجادل مياه المحيط إذ تتصاعد إليها: هي تقبل الوديعة بتواضع وتعيد توزيعها.

– حسناً. هات ما عندكَ. ما الناقص في جمهوريّتكَ؟

– الإنسان الإنسانويّ.

– الإنسان الإنسانويّ؟ كيف؟! ألم تخصّص صفحات وصفحات لوصف طبيعة الإنسان العادل؟

– بلى. لكنّني وقعتُ في خطأ مميت. لقد افتُتنتُ بالبعد المجرّد حدّ أنّني كيّفتُ هذا الإنسان بناءً على معايير مدينتي وهرميّاتها، وكان يجدر بي أن أفعل العكس. لقد فرزتُه أنواعاً وطبقات، فميّزتُ بين مؤهّلٍ للحكم ومؤهّل للحرب ومؤهّل للإنتاج. لقد طوّعتُه بناءً على مبدأ قدرات محدودة ومقيِّدة (إمّا العقل وإمّا العاطفة وإمّا الشهوة)، بينما كان حريّاً بي أن أمجّد كفاءته في أن يكون الثلاثة معاً، وأكثر، أي كفاءته في أن يكون إنسانويّاً.

– هذا إمعانٌ في مثاليّة مستحيلة أنتَ أصلاً متّهمٌ بها، أليس كذلك؟

– لا ضير في المثاليّات، فجميعها قابلة للتطبيق عندما نقرّر ذلك. لا يُنتج العقل إلّا الممكن، مهما بدا هذا الممكن مستحيلاً على المدى المنظور. لا يطرأ على البال إلّا ما له أن يتحقّق.

– كلّ إنسان كفوء إذاً؟

– كلّ إنسان كفوء.

– يمكن كلّ إنسان أن يكون حاكماً؟

– ومحارباً ومنتجاً؛ يمكن كلّ إنسان أن يكون إنسانويّاً.

– ماذا عن الشعراء؟

– ليتكاثروا.

– ماذا تريد منّي بالضبط؟

– أن تخطّ يـداكِ تـصوّري المنقَّح عن الإنـسان، وأن تجعلي إنسانويّته المركز، بـدلاً من جعله هو محض بيدقٍ فاعل في نظام. بئس نظام يكون هو الخالق لا المخلوق، وهو السيّد لا الخادم. ثمّ، لي عندكِ طلبٌ أخير قبل أن تغادري...

– ماذا؟

– قولي للعازفة أن تتوقّف. حان دوري لكي أغنّي الآن.

فاتحة

نشيد أفلاطون

أندادي الفلاسفة يحذّرون:

«هي مهدَّدة!».

السوداويّون يقولون انقرضتْ.

لكنّي رأيتُها:

هي ابتسامةٌ على وجهِ عابر سبيل

لن تصادفوه مجدّداً.

هي ضحكةُ طفلٍ تُذكِّركم

بالمرّة الأولى حين نادتكم أمّهاتكم بأسمائكم.

هي عصفورٌ يحطّ فجأةً على شرفاتكم

يغنّي أغنيةً صغيرة

ثمّ يحلّق بعيداً بعيداً

تاركاً وراءه عبق الحرّية.

هي أصوات العالم قبل الفجر،
بيضاءَ بيضاءَ
وبسيطة
بساطةَ الحياة إذ تَرَون إليها من رحمٍ دافئة:
بصماتُ ما كان،
واحتمالاتُ ما يمكن أن يكون.

هي قلوبكم الطافحة بالحبّ
بلا شيء
سوى
الحبّ.

هي القبلة اللامنتظَرة
على جرحكم النازف
وهي الخنجر في ظهوركم هامساً:
«تابِعوا! تابِعوا!».

هي عناق الوداع،
عناق اللقاء،
والنارُ بين العناقَين.

هي أن تمشوا حفاةً على شاطئٍ مهجور،
ثمّ أن تجلسوا في شارعٍ مزدحم.
تتخيّلون اللحظة الّتي قال فيها أحد المارّة:

«أحبّك»
وكان يقصد فعلاً ما يقول.

هي أن تعثروا على صديقٍ من حياةٍ سابقة
في عينَي طفلٍ
في مدينةٍ بعيدة
حيث تُباع الأساور ببضعة قروش
وحيث تُمنَحون السكينة بلا مقابل.

هي ذاتُكم في المرآة
فلا تكرهوها،
ولا تحاكِموها،
ولا تجعلوها شظايا بكبريائكم المسنّنة.

هي أن تشعروا بالعرفان حيال نبتةٍ متواضعة
غايةُ وجودها أن تتنفّسوا.

هي أن تجدوا الصفاء
رغم الرعب
رغم الشكوك
رغم الألم الّذي ينهشكم مثل حريقٍ في مبنى بلا مَخارجَ للنجاة.

هي نعمةُ الكلمات المناسبة
تقولونها في الوقت المناسب.

هي أن تخترعوا ما ينبغي اختراعه،
أن تقبلوا ما لا يسعكم تغييره.

هي فنجان قهوتكم،
وثيابكم الجديدة،
وذلك الحذاء الجلديّ الأنيق
الّذي انتعلتموه في عرس صديق:
وهي الأيدي الصغيرة
الناشطة في المعامل والحقول
الّتي أعطتكم هذا كلّه.

هي الأشخاص الّذين فتحوا الطريق
كي تصلوا إلى حيث أنتم الآن.
هي جميع الّذين تركوا الحصى وراءهم
كي لا تضيعوا.

هي الخبز.
هي رائحة الخبز.
وأولئك المجهولةُ أسماؤهم
الّذين ينظّفون الطرق
وأنتم نيام.

هي رحابة الكون،
وهي معجزة أنّكم جئتم إليه،

وسلسلة الحوادث المستحيلة
الّتي جعلتكم ممكنين.

هي أجسادكم.
هي دهشة أجسادكم.
هي عقولكم
وكلّ ما تستطيع،
وما لن تستوعبوا.

هي جمال الشعراء الّذين يشكّكون في أنفسهم
وجمال العلماء
الّذين لا يشكّكون
أبداً.

هي أن تدركوا أن الآخر الّذي علّموكم أن تكرهوه
ليس إلّا أحد وجوهكم اللامتناهية.

هي أن تلعبوا كالأطفال
هي أن تلعبوا كراشدين أنقذوا الأطفال في داخلهم
من الغرق.

هي ضآلتكم،
هي عظمتكم،
وهي روعة أن تنسوا الاثنتين.

أصدقائي الفلاسفة يقولون إنّها تُحتضَر،
الفلاسفة السوداويّون أعلنوا موتها.
لكنّها حيّة أبداً –
إنسانيّتكم:

هي شجرة السحر
الّتي في غابة وعيكم
تنتظر
بصبرٍ
أن تعانقوها من جديد.

رحلة المُحارِب

(هو المُكافحُ المُتَمكِّنُ المثابِرُ الطموح)

«يربح مَن يعرف متى يحارب ومتى لا.»

سون تزو

القصّة

قاتلي الخفيّ

«لكلّ امرئ وجعٌ مكتوم لا يعرفه العالم.»
هنري لونغفيلو

بعض العائلات تتوارث المجوهرات؛ أخرى الأراضي. عائلتي أنا تتوارث قاتلاً خفيّاً.

هو ليس سرطان الصدر، ولا الباركنسون، ولا تصلّب الأنسجة. يستحيل اكتشافه بواسطة فحص الدم أو الأشعّة أو بالتخطيط الكهربائيّ. لكنّه يعشّش في جيناتي. أشعر به يترصّدني، محاولاً التهامي يوماً بعد يوم، منتظراً بصبر أن أستسلم لنداء هاويته.

لا يمكنني طرده بمشيئتي، أو حرق خلاياه بجلسات كيميائيّة، أو استئصاله بعمليّة جراحيّة. يمكنني طبعاً أن أبطئ سيره بالأدوية، لكنّه قد يستطيع اللحاق بي رغماً عنها. هو دائماً ينجح في ذلك، إذا لم أواجهه بإرادة صلبة، وخصوصاً بوعيي لوجوده فيّ.

طويلاً كَمَنَ لجدّتي. طويلاً كَمَنَ لشقيقة جدّتي. طويلاً كَمَنَ لإحدى خالاتي. وقد نجح في قتلهنّ جميعاً.

اسمه الاكتئاب؛ وهو يكمن لي أنا أيضاً.

***

لم ينتبه أحدٌ من أصدقائي يوماً من تلقاء ذاته إلى أنّني أعاني الاكتئاب. لطالما أطلعتُهم بنفسي على ذلك. سرّ القاتل الخفيّ أنّه مربِكٌ، يتقن التنكّر ويشيع الرعب. مربكٌ هو، حدّ أن لا أحد ممّن حولكَ يتعرّف إليه ويدقّ جرس الإنذار. يتقن التنكّر، حدّ أنّكَ لا تميّز ملامحه بسهولة. يشيع الرعب، حدّ أنّ من يحبّكَ يتردّد في الاعتراف بأنّكَ تعانيه وفي تحذيركَ منه. ثمّ إنّ أعراضه مشوِّشة: إذا كنتَ متجهّماً، فالسبب أنّكَ شخص حسّاس للغاية. إذا كنتَ منسحباً، فلأنّكَ انطوائيّ. إذا كنتَ تكثر من النوم، فلأنّ جسدكَ متعب ويحتاج إلى الراحة. إذا كنتَ متقلّباً، فلأنّكَ مزاجيّ، أو، في حال النساء، لأنّكِ تعانين أعراض ما قبل الدورة الشهريّة. زد على ذلك أنّ تشخيصي كان صعباً لأنّني إيجابيّة الطبع، أتمتّع بحسّ فكاهة عالٍ جداً، أبتسم بتلقائيّة وأضحك وسع قلبي. أيضاً، أنا اجتماعيّة وودودة وديناميكيّة للغاية. فكيف يمكن شخصاً مثلي أن يعاني الاكتئاب؟

أشخاصٌ كثرٌ مثلي يعانونه، لأنّ الاكتئاب ليس مرادفاً للحزن. هو أكثر خطورةً ومكراً. قلّة يدركون هذا الأمر.

***

لم أفهم حالتي ولم أتقبّلها إلّا متأخّرةً، تحديداً في الثامنة والثلاثين من عمري. قبل ذلك، ومنذ سنوات المراهقة، كنتُ قد أقنعتُ نفسي بأنّ سوداويّتي وتقلّباتي وميلي إلى الوحدة وشعوري الدائم بأنّي دخيلة في هذا العالم، هي عواقب كوني شاعرة: أي إنها ثمنٌ لا مفرّ منه عليَّ أن أدفعه لقاء امتلاكي تلك الهبة. كانت هذه الأعراض

أيضاً، في شكل من الأشكال، بمثابة براهين لكبريائي على أنّني شاعرة «حقيقيّة»، وتالياً أحببتُها واحتفيتُ بها. كان الكليشيه الرومنطيقيّ عن الشاعر اللامنتمي سائداً في المتخيَّل الثقافيّ أثناء مراهقتي، ولمّا يزل. لم أكن أعرف أنّ الشعر كان في الحقيقة ينقذني من الموت بلا وعي منّي.

كانت العقاقير المهدّئة، على غرار الـ«ليكزوتانيل»، متوافرة كالأسبيرين في منزلنا. غنيّ عن القول إنّها لم تكن تؤخذ بناءً على وصفة طبيب. امرأةٌ ما أخبرت ابنة خالتي أنّ هذا الدواء ساعدها على التماسك عندما فقدتْ والدها. ابنة خالتي أخبرتْ أمّها، الّتي كانت تعاني نوبات هلع. خالتي أخبرت شقيقتها (أمّي) الّتي كانت دائمة التوتّر، وهكذا كان: سرعان ما صارت العائلة كلّها تتعاطاه. مذ بلغتُ السادسة عشرة من عمري، كنتُ، كلّما شعرتُ بعقدة في معدتي وبالعجز عن النهوض من السرير، أبتلع حبّة منه مع فنجان قهوة، فيتحقّق السحر. صحيح أنّه ساعدني على اجتياز مراحل صعبة كثيرة، لكنّ درجة الاعتماد عليه كانت عالية جدّاً، فضلاً عن أنّه لم يكن يعالج المشكلة الحقيقيّة الّتي كانت أصل القلق. كان يؤخّر انفجار القنبلة الموقوتة فحسب، بل لعلّه كان يزيدها ضرراً.

لا تُلام عائلتي على تعاطيها المتساهل مع الحبوب، فتلك ثقافة سائدة إلى حدّ كبير في لبنان: لدينا مثل شعبيّ يقول «إسأل مجرِّب ولا تسأل حكيم»، أي إنّ من المستحسن أن تعالج نفسكَ باتّباع نصائح أحد الأصدقاء، أو توصيات شخص مرّ في الأزمة نفسها، بدلاً من أن تلجأ إلى خبير مختصّ. هكذا، غالباً ما يكون طبيبكَ هو جاركَ، أو البرنامج الصباحيّ على شاشة التلفزيون، أو، في أحسن الاحوال، صيدلانيّ الحيّ. أدوية خطرة كثيرة لا تتطلّب حتى اليوم أيّ وصفة

طبّية، وتباع كالشوكولا. هذه إحدى عواقب حربنا المدمِّرة، والفوضى الّتي نجمت عنها، ولا تزال سائدة حتى الساعة.

ليس من السهل على طفلةٍ أن تتعايش مع احتمال موتها أو فقدان أحبّتها بقذيفة غادرة؛ أو أن تدوس على جثّة بلا انتباه في طريقها إلى المدرسة في أحد الأيام؛ أو أن تنام في ملاجئ باردة ورطبة تسرح فيها الجرذان حولها وتمرح؛ أو أن ترى قنّاصاً يقتل المارّة من على شرفة المنزل المقابل. كيف يمكن المرء أن يتعامل مع فظائع كهذه، وأن يتخطّاها؟ لستُ استثناءً في هذا المجال: لم تخلّف الحرب الأهليّة اللبنانيّة مئات الألوف من القتلى والمشوّهين جسديّاً فحسب، بل خلّفت أيضاً أجيالاً كاملة من المشوّهين نفسيّاً، بلا أيّ مبادرات رسميّة تقريباً لدعمهم ومساعدتهم على الشفاء. ثمّة دراسات تفيد بأنّ هذه الجروح النفسيّة يمكن أن تتحوّل أمراضاً تُتوارث جينيّاً، أي قد يدفع أولادنا وأحفادنا ثمن ما عشناه لعقود كثيرة مقبلة.

لكنّ الحرب ليست المَلوم الوحيد في حالتي. عدوّي لم يكن في الخارج فحسب، بل أيضاً وخصوصاً، داخلي.

كنتُ في السابعة من عمري عندما انتحرَتْ جدّتي جميلة. ما زلتُ أذكرها ممدّدةً على أرض المطبخ، الرغوة البيضاء تطفح من فمها، بسبب السمّ الّذي كان وسيلتها إلى الموت. ربّما تتساءلون كيف يسمح أيّ أهل لطفلةٍ برؤية مشهدٍ مروّع كهذا؟ ليس الأمر وكأنّ والديّ أرادا لي أن أرى ما رأيت، لكنّ المسألة وما فيها أنّنا اكتشفنا ما حصل – أنا وهما – في الوقت عينه. أتراني أندم على دخولي إلى المطبخ يومئذٍ؟ البتّة. في حينها كنتُ قد اعتدتُ الموت إلى درجة أنّ رؤيته وجهاً لوجه أو السماع عنه كانا يتركان فيَّ الأثر نفسه. الخسارة الحقيقيّة بالنسبة إليَّ كانت إدراكي أنّني فقدتُ إنساناً أحبّه.

كنتُ أعرف أنّ شقيقة جميلة الكبرى انتحرَتْ هي الأخرى. ليس الأمر مستغرباً، فالعالم بأسره كان ضدّهما، هي وجدّتي. لقد شهدتا في صغرهما مجزرة الأرمن وفظائعها، خسرتا والديهما بأبشع الطرق، ثمّ نشأتا في ميتم وعاشتا حياة بؤس ومعاناة.

لم يخطر في بالي يوماً أنّ الأمور في عائلتي مترابطة بأيّ طريقة من الطرق، فانتحار جدّتي جميلة، وانتحار شقيقتها قبلها، وطبع أمّي المتوتّر، وغرابة خالتي سلوى، وخمول خالتي الأخرى، وعجز خالي عن السيطرة على غضبه، وشعوري الدائم بالجزع، كلّها أعراض كنتُ أعتبرها محض مصادفات، من دون أيّ علاقة في ما بينها. كنتُ مقتنعة بأنّ لكلّ عائلة مشكلاتها، وأن لا داعي للقلق. الآن فقط، حين أعود قليلاً إلى الوراء، أرى بوضوح كم كنتُ أحترف الاختباء خلف إصبعي، وكم كنتُ أريد الهرب من مواجهة الحقيقة.

ثمّ جاء اليوم الّذي انتحرَتْ فيه خالتي سلوى بدورها، شتاء 2009. رمَتْ بنفسها عن شرفة الطابق الثالث في المصحّ العقليّ الّذي وضعها فيه شقيقاها. كانت سلوى لا تنفكّ تدخل هذا المصحّ (يسمّيه البعض بسخرية مهينة «مستشفى المجانين» أو «العصفوريّة») وتخرج منه مذ بلغت التاسعة والثلاثين من العمر، ولم يكن أحدٌ تقريباً يزورها هناك. وحدها أمّي، وخالتي الكبرى، كانتا تزورانها بين وقتٍ وآخر. ما زلتُ أذكر وجه والدتي عند عودتها من تلك الزيارات: كانت تصل باهتة السحنة، عليلة الروح، وتخبرني قصصاً مرعبة عن جلسات الكهرباء وصراخ المرضى وسيرهم في الأروقة بعيون فارغة.

لم أزر خالتي سلوى يوماً في المصحّ. ربّما كنتُ أنانيّة، أو ربّما كنتُ أريد المحافظة على صورة الخالة المرحة الّتي كانت تمشّط شعري الطويل وتعطيني في الخفاء ألواح الشوكولا وتضع الأحمر على شفتيَّ الصغيرتين. ربّما... ولكن حتى لو كان السبب الثاني هو

الصحيح، كان يكتنفه شيء من الأنانيّة أيضاً. جاء انتحارها صفعة قاسية، وبرهاناً على خيانتي لها، خيانة لن أسامح نفسي عليها يوماً. لن أتخطّى ذنب عدم تكبّدي عناء رؤيتها وزيارتها والاعتناء بها عندما احتاجَت إلى الحبّ والمرافقة والرعاية. هل كانت زياراتي ستغيّر شيئاً في مصيرها؟ أشكّ في ذلك، ولكن لعلّها كانت ستغيّر أشياء في مصيري أنا.

عندما انتحرتْ سلوى، كانت في التاسعة والخمسين من عمرها، بينما كنتُ أنا قد بلغتُ الثامنة والثلاثين. شاءت المصادفات أن يكون عملي في تلك المرحلة من حياتي متمحوراً حول الانتحار، إذ كنتُ قد انكببتُ لأربع سنوات على أنطولوجيا عن الشعراء المنتحرين في القرن العشرين، كما وضعتُ مجموعة قصائد في الانتحار ونشرتُ المؤلّفين تحيّةً لذكرى جدّتي. جاء انتحار سلوى آنذاك عنيفاً ومزلزِلاً، وشكّل الضربة الّتي توّجتْ سوداويّةً رافقتْني لسنوات أربع، أثناء عملي على الكتابَين المذكورَين.

هكذا التقَت الخطوط على حين غرّة واتّضحَت الصورة: لم يعد هناك من مهرب، كشفتُ الأوراق وأخرجتُ الغبار الّذي كنتُ قد كنستُه طويلاً وأخفيتُه تحت السجّادة. لحسن حظّي وقعتُ على طبيب ماهر، متفهّم، وأهل للثقة. عمدتُ أيضاً إلى تغيير بعض عاداتي، قلبتُ روتيني اليوميّ، أعدتُ تقييم نظرتي إلى الحياة، والأهمّ من ذلك كلّه، صرتُ مدركةً لمرضي: آنذاك فقط بدأتْ رحلتي نحو مواجهة قاتلي الخفيّ.

أذكر ذات مرّة، عندما تكلّمتُ خلال مقابلة تلفزيونيّة عن انتحار جدّتي وعن الاكتئاب، كيف انهالت عليَّ الرسائل الّتي تثني على شجاعتي في التطرّق إلى مرض يُعَدُّ من التابوهات، نظراً إلى الأحكام المسبقة الّتي يصبّها الناس على مَن يعانيه، والسخرية الجارحة الّتي

تجعل المريض محض «أخـوت» في قاموسهم. لعلّ هـؤلاء ينسون أو يتناسون أنّ نسب مبيعات العقاقير المهدّئة هي من الأعلى في لبنان. رغم ذلك، يخجل المصابون بالاكتئاب من التصريح بمرضهم خوفاً من نظرة المجتمع إليهم، بينما فئة صغيرة فقط تراه كما ينبغي له أن يُرى: مرضاً كغيره من الأمراض، لا يختلف عن السكّري مثلاً، ولا يقلّ فتكاً.

هل حقّاً يتطلّب قول ما أقوله قدراً عالياً من الجرأة؟ هل الاعتراف بما نخاف عادةً الكشف عنه، أو حتى بما نخجل به، يحتاج إلى شجاعة؟

لقد تخطّيتُ هـذا السؤال منذ وقت بعيد، لأنّـي لا أريـد أن «أشتري» قرّائي بل أن «أربحهم» عن جدارة. الآن، عندما أكتب، لا يعنيني إلّا سبر أغواري واستكشاف المزيد من الطبقات الّتي تكوّنني؛ لا يستفزّني إلّا فهم نفسي والعالم بشكل أفضل؛ لا يهمّني إلّا تصعيد وعيي ومساعدة ذاتي والآخرين. عندما أكتب، لا أرى الخطوط الحمر أمامي، لا أسمع التحذيرات من حولي، ولا أبالي بالألغام الّتي قد تنفجر تحت قدميّ. جلّ ما أفعله هو أنّني أتربّص بذاتي، ثمّ أنقضّ عليها وأقشّرها حتى تصير عزلاء تماماً على الـورق. آنـذاك أكون أنا المتلصّصة والمستعرية في آن واحـد؛ المأدبة وصاحبة الـدعـوة؛ مفترسةُ نفسي وطريدتها. وكلّما انفجر بي لغمٌ، أنتشي، لأنّني بذلك سوف أمنح القرّاء قطعة من لحمي الحيّ.

آنذاك، وآنذاك فقط، أشعر بالرضى. آنذاك أشعر بأنّ كلماتي/سهامي قد وصلتْ إلى مرماها.

***

أجل، هناك قاتلٌ خفيّ في جيناتي. أشعر به كمثل سفّاح قابع في الخفاء، يقتنص الفرصة المناسبة ليطلق عليّ الرصاصة الأخيرة. لكنّني

أعرف أنّني أقوى منه وأذكى، وأكثر سرعة وحنكة. جميعنا كذلك، أو بالأحرى، باستطاعتنا جميعاً أن نصبح كذلك. ولكن ليست هناك وصفة واحدة للتغلّب على الاكتئاب، وعلى كلّ إنسان أن يجد طريق خلاصه بنفسه. شخصيّاً، لستُ أدري إذا كنتُ سأغلب مرضي هذا نهائيّاً يوماً، لكنّني أكيدة من أنّني سأظلّ أقاومه، تماماً مثلما أقاوم أعدائي الخارجيّين، كاللامساواة والرقابة والعنصريّة والقمع والتمييز الجنسيّ ورهاب المثليّين وسواها من أشكال الظلم. سأظلّ أكافحه بالعلاجات الملائمة، لكن أيضاً وخصوصاً، بالحبّ والكتابة والقراءة والمخطّطات والإنجازات والموسيقى والتعلّم والتثقّف والسفر والفنّ والخيال. قد لا أتمكّن من جعله يختفي تماماً من حياتي، لكنّني سأسدّد إليه اللكمة وراء اللكمة، إلى أن يسقط أرضاً ويستسلم، ويتحوّل صديقاً قديماً ثقيل الظلّ، أتحمّل وجوده لأنّه مصدر وحي وغنًى وقوّة، ولأنّه يستفزّني مثلما وحده يستطيع أن يفعل.

هل هذا يعني أنّني أقوى من سواي في التعاطي مع الضعف والوهن؟ البتّة. لستُ بأيّ شكلٍ من الأشكال امرأة خارقة، وما زلتُ حتى الآن أسأل نفسي بامتعاض: «لماذا أنا؟». ما زلتُ أجدني في أحيانٍ كثيرة أنساق إلى التشاؤم والسوداويّة والغيظ واحتقار الذات واليأس... أذكر أيّاماً طويلة، لا بل أسابيع حتّى، أُمضيها في ملابس النوم، عازفةً عن الخروج من السرير، خائفةً شرّ الخوف من العالم المرعب الّذي ينتظرني في الخارج. أذكر اصطكاك ركبتيَّ، غياب شهيّتي، أو العكس، تعاظم شراهتي؛ وأذكر ذلك الاحتراق الرهيب في صدري، الاحتراق الّذي ينذر بموتٍ داخليٍّ ما، بالرغبة في موتٍ داخليّ ما. أذكر نظرات الآخرين وكلماتهم وعجزهم عن فهمي واعتقادهم أنّني أستطيع إطفاء احتراقي هذا بالسهر أو بشراء حذاء جديد... وأذكر أكثر ما أذكر ذلك الصوت المروّع، ذلك الصوت الآتي

من رأسي، يهمس ببرودة رعناء: «استسلمي! لا شيء يستحقّ عناء المقاومة». ولكن مع الوقت، ومع الكثير من الصبر، يعود الضوء رويداً رويداً إلى جسمي وذهني. آنذاك أرى ضعفي بوضوح، وأفرّ من براثن الوحش عائدةً إلى نفسي.

***

الآَن، عندما أستيقظ كلّ صباح، أجدّد عهدي على نفسي بأن أكون كابوس قاتلي الخفيّ، بدل أن أسمح له بأن يكون هو كابوسي. فتصير الجحيم الّتي في روحي مدينة ملاهٍ.

المَقصِد
قمّة جبل

«الكفاح نحو القمّة يكفي في ذاته ليُفرح قلب الإنسان. ينبغي لنا أن نتخيّل سيزيف رجلاً سعيداً.»

ألبير كامو

العالم الإنسانويّ قمّةُ جبلٍ.

تشاهدين القمّة من بعيد، غامضةً، شامخة، متعجرفة. تقرّرين أن لا شأنَ لكِ بها، وأنّها ليست لِمَن هم مثلكِ أصلاً. تقنعين نفسكِ بأنّ قلّة نادرة هي القادرة على بلوغها والتغلّب على عقبات الطريق؛ قلّة نادرة ليس من الضروريّ أن تكوني في عدادها لكي تشعري بالرضى والاكتمال. هؤلاء يسمّون المحاربين والمحاربات: تتأمّلينهم من مكانكِ بإعجاب، لكنّكِ متأكّدة من أنّكِ لا تنتمين إلى مجموعتهم. أنتِ تنتمين إلى الفئة الأخرى، فئة الناس العاديّين، الواقعيّين، المتواضعين، والمعتدلين. تعرفين حدودكِ وتلتزمينها، تدركين إمكانيّاتكِ وتحرصين على عدم نفخ توقّعاتكِ. ترحّبين بما يقدّمه لكِ القدر، تتلقّينه وتشكرين، وتحاولين أن تستفيدي منه بقدر

الإمكان. لستِ بطلة، ولا يمكنكِ أن تكوني بطلة. تقرئين الكلام الرائج عن أهمّية القبول بالقليل، أو حتى باللاشيء متى لم يتوفّر القليل، فـ«القناعة كنز لا يفنى». تقنعين نفسكِ بعبثيّة التوق إلى أكثر وأبعد من واقعكِ، فلا فائدة من تبديد وقتكِ وطاقتكِ سدىً. لا تسمحين لنفسكِ بالاستغراق في أحلام اليقظة. حتى أحلام الليل تحاولين منع ذاتكِ عنها. لا تخطّطين، لا تضعين المشاريع، فأنتِ لا تريدين سوى الصمود. لا تسبحين، بل تطفين على وجه المياه وتتركين للتيّار حرّية التصرّف بكِ. فلسفتكِ في الحياة هي «كلّ شيء سيكون على ما يُرام». تركّزين على ما لديكِ وتقارنينه بما لدى من هم أقلّ حظّاً منكِ، فتشعرين بالطمأنينة. ولكنْ، فلننصفكِ قليلاً، هذا لا يعني أنّكِ لا تنتظرين ما هو أفضل: بل تنتظرينه، وتدركين بحدسكِ أنّه قادم لا محالة. أليس هذا ما تعدكِ به الأبراج كلّ صباح؟ ذلك هو الطموح في قاموسكِ: فعلُ انتظار.

***

لكنّ العالم الإنسانويّ قمّة جبل، وليس في وسعكِ تالياً أن تتجاهليها: ترينها أينما نظرتِ، كيفما تطلّعتِ، وهي تلوح لكِ حتى من داخل رأسكِ. في أحيانٍ كثيرة تسمعين همسها، تسمعينها تسخر منكِ وتهزأ بكِ: «يا لكِ ضعيفةً، ضعيفةً، ضعيفة!». «تكبّرين عقلكِ» وتحاولين أن تتجاهليها، وتنجحين إلى حدّ ما.

إلى أن يأتي اليوم الّذي يعلو فيه الصوت إلى درجة لا تُطاق. لا يعود همساً بل يتحوّل إلى صراخ وقح. تعزمين آنئذٍ على محاولة تسلّق الجبل حتى القمّة، لحملها على الكفّ عن مضايقتكِ. تنطلقين، وتجدين الخطوات الأولى سهلةً للغاية، إلى درجة أنّكِ تتساءلين بينكِ وبين نفسكِ: «لماذا لم أُقدم على ذلك من قبل؟». ولكن شيئاً فشيئاً،

يبرد الهواء وتلاحظين أنّكِ نسيتِ أن تحضري معكِ معطفاً. شيئاً فشيئاً تشعرين بالعطش والجوع، وتلاحظين أنّكِ نسيتِ أن تتزوّدي بالطعام والماء. شيئاً فشيئاً تشعرين بقدميكِ تؤلمانكِ، وتلاحظين أنّكِ ستحتاجين إلى حذاء جيّد إن كنتِ فعلاً عازمةً على إكمال الصعود.

تهرعين مجدّداً إلى السفح، إلى تحت، إلى منطقتكِ المألوفة، وتقولين في نفسكِ: «غداً. نعم غداً سأحاول مجدّداً، وهذه المرّة سأحرص على أن أتزوّد بكلّ ما يلزم للنجاح في مهمّتي». لكنّ الغد يتأخّر في الوصول. يبتلعكِ روتينكِ من جديد، ويُنسيكِ الوعد، فتروحين تتلذّذين بوسائدكِ الوثيرة، بدفء بيتكِ الآمن، وبمأكولاتكِ الجاهزة.

غير أنّ العالم الإنسانويّ قمّة جبل لجوجة، نكدة، تظلّين ترينها أينما نظرتِ. لا تنفكّ تلحّ عليكِ وتحثّكِ على تكرار المحاولة. لا يبدو أنّها قد تستسلم وتتركك بسلام في القريب العاجل. فتستعدّين لمواجهة التحدّي مرّةً ثانية. تعدّين عدتّكِ جيّداً هذه المرّة، فلا تنسين أيّاً من ضرورات الرحلة؛ حتّى إنّكِ تتذكّرين إحضار واقٍ من الشمس ومصباح يدويّ، وتهنّئين نفسكِ على جهوزيّتكِ.

هذه المرّة، تشعرين أيضاً بالحنق؛ حنق عارم يؤجّج ناركِ ويحميكِ من البرد أفضل من سترتكِ، ويمنحكِ القوّة أكثر من ألواح البروتين الّتي اشتريتِها من السوبرماركت. لم يعد الجبل يثير الرهبة في أوصالكِ، فتجدين نفسكِ تجتازين مسافات وتبلغين مواضع أعلى من المرّة السابقة.

ولكن فجأةً، تحسّين بالأرض تهتزّ تحت قدميكِ وكأنّها تتحدّاكِ. تحسّين بالهواء ينفد ويهرب من رئتيكِ. تحسّين بقسوة الطقس المتزايدة. الخطوات تصير أكثر صعوبة، والطريق زلقة خطِرة. تروحين تفكّرين وتحلّلين، ويزداد تردّدكِ شيئاً فشيئاً: «يا لي

من رعناء! لِمَ أخاطر هكذا؟». فجأةً تستعيدين في ذاكرتكِ أريكتكِ المريحة، وسيّارتكِ الّتي تقلّكَ من مكان إلى آخر من دون أن تتكبّدي أيّ عناء، ثمّ ترمقين قمّة الجبل، فترينها لا تزال على عجرفتها وإبائها وصعوبتها. تفكّرين بمنطق وتعقّل: «إنّ الأمر مستحيل. لن أبلغ يوماً تلك القمّة اللعينة».

تقرّرين إذاً أن تعودي أدراجكِ، لكنّ شيئاً مدهشاً يحصل في تلك اللحظة بالذات. ما إن تستديرين وتنظرين إلى أسفل، حتى تري كلّ المراحل الّتي قطعتِها، وكلّ المسافات الّتي اجتزتِها. ترين مجهودكِ العظيم، والجروح الّتي على ركبتيكِ، ونهر العرق الّذي تصبّب منكِ. ترين الشكوك الّتي أسكتِّها، المخاوف الّتي تغلّبتِ عليها، وحجم المثابرة الّتي أوصلتكِ إلى حيث أنتِ. تفكّرين في سرّكِ: «إنّ لمن المؤسف فعلاً أن يضيع كلّ هذا هباءً». فجأةً يصير بيتكِ الآمن مملّاً باهتاً، وتقعين في حبّ عبئكِ، وتتآلفين مع معاناتكِ، وتصيرين أنتِ الصخرة الّتي تدفعينها إلى الأمام. تقرّرين أن تكملي، أن تتابعي الصعود، أن تظلّي تتحدّين عنجهيّة قمّة الجبل تلك.

تكملين الطريق إذاً، وكلّما شعرتِ بالتردّد أو بفقدان الأمل أو بالرغبة في الإحجام، تلقين نظرةً سريعة خاطفة إلى الوراء، فتشعرين بساقيكِ تشتدّان، وبعزيمتكِ تتجدّد.

***

وتتعلّمين أموراً كثيرة في الطريق. تتعلّمين أنّه لا بأس أن تشعري بالاكتفاء بين حين وآخر، ولكن من دون أن تكفّي عن الرغبة في المزيد. تتعلّمين أنّ من المفيد أن تكوني عملانيّةً، ولكن من دون أن تمتنعي عن بسط يديكِ إلى البعيد البعيد، إلى حيث يمكنكِ أن تلتقطي غيمةً عابرة. تتعلّمين أنّ من المهمّ أن تتمتّعي بالتواضع والاعتدال، من دون

أن يعني ذلك التقليل من شأنكِ وتقويض إمكاناتكِ. لا عيب في أن تُبقي توقّعاتكِ منخفضة، لكن بعد أن تراهني، لا قبل ذلك. تكتشفين أنّكِ أنتِ بطلة نفسكِ، لا لأنّكِ لا تخافين، بل لأنّكِ تتواطئين مع خوفكِ وتحتضنينه. أنتِ بطلة نفسكِ، لا لأنّكِ لا تُهزَمين، بل لأنّكِ لا تكفّين عن الرهان على نفسكِ على الرغم من الهزائم المتتالية. تتعلّمين أيضاً أن ليس من إنسانٍ كامل، ليس من إنسانٍ غير موهوب، وأنّ كلّ امرئ يمكنه أن يبرع في مجالٍ ما. ما من شيء بعيد المنال، ما دمتِ راغبةً فيه وقادرةً على تخيّله والشعور به مستسلماً بين يديكِ. صحيح أنّكِ ستحتاجين دوماً إلى مقارنة حياتكِ بأولئك الأقلّ حظّاً منكِ، وأنكِ، في بعض الأيّام – بل قولي في معظمها – ستشعرين بنفسكِ مستنزَفة بائسة وعاجزة عن تحمّل المزيد؛ صحيح أنّ كيلكِ سيطفح أحياناً، لا محالة... لكنّكِ ستدركين أنّ الانتظار، انتظار الأفضل، هو مرحلة لا بدّ منها؛ لكنّه مرحلة فقط لا غير، وليس نمط حياة.

***

في نهاية المطاف، ومن دون أن تدركي كيف، تجدين نفسكِ فوق. تجدين نفسكِ على قمّة الجبل. لقد طوّعتِ القمّة ودجّنتِها من حيث لا تدرين. وإذ تتحضّرين للجلوس والتلذّذ بطعم النجاح، ترين من بعيد قمّةً أخرى، أعلى، تلوح في وجهكِ...

لكنّكِ هذه المرّة لستِ بخائفةٍ: لقد صرتِ واحدةً من أولئك المحاربين والمحاربات الّذين كنتِ تتأمّلينهم بإعجاب من بعيد.

المُحاوَرة
لِمَ الحرب؟

«أودّ لو أعيش تلك اللحظة البدائيّة، الأولى، الّتي
جعلت خليّةً ما تتوق إلى أن تصير إنساناً.»
كلاريس ليسبكتور

أنا: لماذا تحضّني باستمرار على الاستسلام؟

الوسواس: أنتِ تسمّينه استسلاماً؛ أما أنا فأعتبره ضمان حياة هانئة وجيّدة لكِ.

– ماذا لوِ كنتُ أتوق إلى حياة أفضل؟

– على المرء أن يتعلّم قبول نصيبه في هذه الدنيا: ما لم يحصل ليس مقدَّراً له أن يكون.

– هذه حجّة الّذين يردّدون لازمة «فلتكنْ مشيئتك». مع احترامي، يشي قولك هذا بشيء من التساهل والتراخي والخوف.

– الخوف ممَّ على وجه التحديد؟

– الخوف من أن أحاول ولا أصل؛ من أن أحارب ولا أنتصر.

– إن كنتُ حقّاً خائفاً عليكِ كما تزعمين، فلا عيب في ذلك. إنّ عبء حمايتكِ من خيبات الأمل يقع على عاتقي، وهو من مسؤوليّاتي.

اجعلي توقّعاتكِ دوماً في متناول قدراتكِ، وأحلامكِ منسجمة مع مؤهّلاتكِ. أنتِ امرأة راشدة، وينبغي لكِ أن تكوني أدرى بحدودكِ.

– ومَن يقرّر حدودي؟

– طبعكِ يقرّرها، وظروفكِ، بالإضافة إلى انتصاراتكِ وهزائمكِ السابقة. كلّها تشكّل دروساً ترشدكِ إلى ما يمكنكِ أو لا يمكنكِ القيام به.

– ليس الفشل شارعاً ذا اتّجاهٍ واحد. يمكننا دوماً أن نعود إلى نقطة البداية لنحاول من جديد.

– إذا حاولتِ من جديد وفشلتِ مرةً ثانية، فستندمين شرّ الندم. ستضعف ثقتكِ بنفسكِ ويتضاءل عزمكِ.

– لكنّني إذا حاولتُ ونجحتُ فستقوى ثقتي بنفسي ويزداد عزمي. إذا كنّا نريد أمراً، فلا بدّ لنا من أن نبحث عنه ونسعى إليه، وإلّا فلن نجده. لا تُعزَّز الثقة بالنفس والعزم بالاجتناب والهرب.

– ألديكِ أدنى فكرة عمّا ينتظركِ؟ هل رأيتِ عدوّكِ؟ لا تملكين أيّ فرصة للتغلّب عليه!

– ربّما لن أغلبه من المحاولة الأولى، ولا من الثانية، أو الثالثة أو العاشرة... لكن في نهاية المطاف قد أقلب المعايير وأربح. أقول «قد» وأنا مدركة تمام الإدراك أنّ محاولاتي يمكن أن تظلّ عبثيّة. ولكن لا بدّ من أن أحاول؛ لا بدّ من أن أحاول لأعرف.

– لكنّكِ سبق أن حاولتِ. حاولتِ وفشلتِ، وأراكِ لا تزالين تتألّمين.

– أنتَ تريد لي إذاً حياةً «آمنة»، لا «هانئة» كما تدّعي.

– الأمان هو الهناء.

– لا... لا... أنتَ مخطئ. الأمان هو الملل، هو المتوقَّع والمضمون. الأمان هو تلك المنطقة البلا لون ولا رائحة ولا طعم، تلك

المنطقة الجبانة الّتي لا تنفكّ تغرينا وتبتلعنا بينما الحياة الحقيقيّة تنادينا.

– وإنْ يكن؟ يقول المثل «مئة مرّة جبان ولا مرّة الله يرحمه»!

– عدم اغتنام الفرص موجعٌ أكثر من الخسارة. في قرارة نفسي أعلم أنّ ندمي على استسلامي سيكون أعمق وأمرّ من ندمي على محاولتي، وإنْ فشلتُ.

– ها أنتِ تعودين إلى منطق المحاولة... الطريق صعبة يا امرأة!

– من البديهيّ أن تكون الطريق صعبة. لا بل في صعوبتها تحديداً تكمن الإثارة والمكافأة على السواء.

– كفى توهّماً. لن تنجحي.

– لا أتوهّم قطّ. أتكلّم عن تجربة.

– أنتِ إذاً تطلبين منّي أن أتركَكِ تدّعين ما لستِ عليه!

– ليس الأمر كذلك على الإطلاق. أطلب منكَ فقط أن تؤمن بأنّني مَن أريد أن أكون. نحن كائنات متحوّلة، متغيّرة، لا شيء ثابتاً فينا. نحن نظّل ورشة بناء حتّى الدقيقة الأخيرة من حياتنا. عندما نتّخذ موقفاً قاطعاً من قدراتنا، نسقط في حلبة اللااحتمالات، واللامفاجآت، واللاإمكانات، أي في حلبة الموت.

– لكنّ التحدّي الّذي تعقدين العزم على مواجهته لا يشبه أيّ تحدٍّ آخر.

– كلّ تحدٍّ فريدٌ من نوعه. ليست هناك صيغة مشتركة، ولا طريقة واحدة لكسبه.

– ولكن ألستِ راضيةً عمّا لديكِ الآن؟ لِمَ تتكبّدين هذا العناء كلّه؟ أمن أجل المزيد؟ ألستِ تخلطين بين الطموح والطمع؟

– لا يهمّني أن أملك المزيد يا صديقي الوسواس، بل أن «أكون» المزيد. أنا لا يهمّني أن أصير أكثر ثراءً، ولا أكثر شهرةً، ولا

أكثر نفوذاً؛ بل أن أخاطر وأراهن وأنضج، وأن أتمكّن من احتضان أحلامي، حتى تولد هذه الأحلام عندما يحين وقتها. يهمّني أن أنعتق من الماضي لكي أعانق المستقبل و«أحمل» منه؛ وأن أفكّ أسري من هزائمي السابقة. ما الأسف والتحسّر في رأيي سوى مضيعة للوقت، شأنهما شأن الحنين. يهمّني التفلّت من الأثقال الّتي تبطئ سيري، فالمعركة هي الأساس. خوض المعركة هو ما يجعلنا أفضل ممّا كنّا عليه وأقوى وأكثر إدراكاً لذواتنا.

– لكنّ دربكِ محفوف بالأخطار.

– طبعاً هو كذلك، ولا يقول العكس إلّا أولئك الّذين ينظّرون علينا من أبراجهم العاجيّة، من دون أن يعلموا ماذا يقولون. الدرب دائماً محفوف بالأخطار، بالعراقيل، بالأصوات الّتي تستخفّ بقدراتنا وتحاول زعزعة مواقفنا. إنّ مهمّتنا إنّما تكمن في منازلة تلك الأخطار وتذليل تلك العراقيل وتجاهل تلك الأصوات الّتي في أذهاننا.

– فلنفترض أنّكِ أقنعتِني. من أين تبدئين؟

– بالمواجهة بدل الانسحاب، بدل الاستسلام قبل خوض المعركة. المواجهة خطوة أولى نحو الانتصار.

– هذه محض تعميمات.

– حسناً. سأكون أكثر دقّة وسأعطيكَ مثلاً. هل تعلم ما ينصحنا به المتخصّصون في سلوك الحيوانات البرّية، إذا حدث أن صادفنا أسداً في طريقنا؟ ينصحوننا بأن نقف وألّا نبارح مكاننا. الثبات أمام الأسد يجعله هو الآخر يبقى مكانه ويعيد حساباته إنْ كان فعلاً يرغب في مهاجمتنا. لكنْ إن أدرنا ظهورنا له وأخذنا في الجري، فعندها سيطاردنا لا محالة وسيقضي علينا بأسرع من لمح البصر. ينبغي أن نثبت في مواجهة عدوّنا، فبتصرّفنا هذا نثير الارتباك في نفسه وقد نجرّده من أسلحته.

– الكلام دوماً أسهل من الفعل. هل سبق أن رأيتِ مخالب الأسد وأنيابه؟

– حسناً. فلأضرب لكَ مثلاً آخر. هل تعلم كيف يربح المتبارز على منافسه في رياضة المسايفة؟ لا يحتاج إلى غرز سيفه في جسد خصمه، إنّما يكتفي بلمسه برأس النصل، كأنّه يقول له: «أراكَ ولستُ أخافكَ، واعلمْ أنّني قادر على هزيمتكَ».

– ماذا لو اجتمع ضدّكِ أعداء كثر؟ ماذا تفعلين في تلك الحال؟

– إنّهم دائماً يكونون كثراً، فنحن لا نحارب من أجل أنفسنا فقط، بل نحارب من أجل الآخرين أيضاً. مثلاً، ليس من الضروري أن يكون الواحد منا امرأةً ليكافح في سبيل المساواة، وليس من الضروريّ أن يكون مثليّاً ليكافح ضدّ رهاب المثليّين، وهكذا: يكفي أن يكون إنسانويّاً. ولكنْ علينا بدايةً تحديد أولويّاتنا، من هنا أهمّية الوعي قبل القيام بأيّ خطوة. لا يمكننا أن نخوض معركةً ضدّ عدوّ مجهول، أو ضدّ أعداء عديدين، ونتوقّع أن نربح. فلنحدّد العدوّ أوّلاً، ثمّ فلنضرب. أولئك الّذين ينازلون طواحين الهواء، إنّما هم دونكيشوتيّون ظرفاء، لكنّ نيّاتهم الحسنة لا تكفي. إذاً، أكنّا نكافح أحد عيوبنا أم نقاط ضعفنا؛ أم كنّا نكافح ظروفنا لخلق حياة أفضل لنا؛ أم كنّا نكافح من أجل قضية عامّة، من الأساسيّ أن نختار معاركنا، وأن نولي اهتمامنا بدايةً للعدوّ الّذي يشكّل أكبر خطر علينا. فالإنسان الإنسانوي محارب فعّال ومنظّم، لا يبدّد طاقته ولا يهدرها في مختلف الاتّجاهات.

– ما الّذي يجعل الإنسان الانسانويّ على هذه الدرجة من التميّز؟

– يُظهر تاريخ الحضارات البشريّة أنّ الإنسان محارب منذ الأزل، لكنّ الإنسان الإنسانويّ ليس مجرّد محارب، إنّما هو محارب

نبيل أيضاً ونبيل خصوصاً. لقد خاض الإنسان منذ القدم معارك كثيرة، لدوافع تراوحت بين الحاجة إلى الطعام والمسكن والنفوذ، أو لأسباب اقتصاديّة أو دينيّة أو سياسيّة أو عقائديّة. أمّا الإنسان الانسانويّ، فهو الّذي حارب البرد، وصنع النار؛ هو الّذي حارب الخوف، وتسلّق الجبال؛ هو الّذي حارب الجهل، ونشر المعرفة؛ هو الّذي حارب الإعاقة، وحقّق الإنجازات؛ هو الّذي حارب العنصريّة، وأطلق الشرارة الأولى للحقوق المدنيّة...

– هذه ليست حروباً حقيقيّة: أين المعارك وأين الدماء؟

– على العكس يا صديقي. هذه هي حروب التاريخ الحقّة: الحروب ضدّ القمع والظلم والقيود، وضدّ التمييز والجهل والعجز. إذا كنتَ تظنّ أنّ إدموند هيلاري وغاليليو وستيفن هوكينغ وروزا باركس ونظراءهم لا يستحقّون أن يُسمَّوا محارِبين، وأنّ الإسكندر المقدونيّ ويوليوس قيصر ونابوليون وأشباههم وحدهم يستحقّون هذا اللقب، فعليكَ مراجعة حساباتكَ وإعادة النظر في تعريفكَ للحرب استناداً إلى الخير الّذي تجلبه إلى البشريّة، بدل الأرباح (الماديّة والسياسيّة والجغرافيّة) الّتي درّتها على مُطلقيها وفصائلهم. إن كنتَ لا ترى مثلاً أنّ الـ«هومو إيريكتوس» (الإنسان المنتصب) محارب من الطراز الأوّل، وهو الّذي استطاع اختراع النار ليتدفّأ ويطهو طعامه ويُبعد الوحوش من حوله، فإنّي أقترح أن تحاول فعل ذلك بحجرَي صوّان، في درجة حرارة لا تتعدّى الصفر، وبدماغ غير مكتمل النموّ.

– ما دمتِ ذكرتِ الـ«هومو إيريكتوس»، هلّا أخبرتِني متى بدأ الإنسان يحارب؟

– منذ 3.8 مليارات سنة.

– ماذا؟! لم يكن هناك بشرٌ آنذاك!

– صحيح. لكن آنـذاك انوجـدت الحياة على هـذه الأرض. صدِّقني، لقد تطلّب الأمـر حرباً ضروساً لتحدث هـذه الحياة، وإلّا فكيف كنّا سننتقل من عداد الموادّ الكيميائيّة إلى مصاف الخلايا الحيّة؟ أيضاً، تطلّب وجـود كلّ واحـدٍ منّا حرباً: على النطفة الّتي تصنعنا أن تكون أقوى وأسرع من مئة مليون نطفة أخرى لتتمكّن من بلوغ بويضة الأنثى. عليها أن تسبح عكس التيّار لفترة طويلة قبل أن تبلغ مرادها عبر عنق الرحم صعوداً إلى قناة فالوپ. نحن لا نولد من الخمول والإهمال والركود، بل إنّ جينة الكفاح هي أكثر ما يميّزنا كمخلوقات بشريّة. تالياً، كلّ مرّة نقول لأنفسنا «لا أستطيع»، فلنغمض عيوننا ونتذكّر ما تطلّبه الأمر لننوجد. لنتذكّر رعب تلك النطفة الصغيرة، لنتذكّر الضغوط المُهلِكة الممارَسة عليها، لنتذكّر المنافسة الضارية الّتي كانت تواجهها. لنتذكّر مثابرة تلك النطفة على اجتياز هذا كلّه من دون تردّد، من دون أن تشيح بنظرها عن هدفها، ألا وهو خلقنا. لنتذكّر انتصارها الّذي صنعنا.

لنفعل ذلك فحسب، وسيبدو كلّ تحدٍّ نواجهه اليوم، مهما كان صعباً، كمثل «شربة ماء».

وصيّة أفلاطون

أن تكوني أو أن تصيري

أشفِقي على مَن كنتِ في الأمس.

أحبّي مَن أنتِ اليوم.

احسدي مَن سوف تكونين غداً.

رحلة الصادق

(هو المُجاهِرُ الصريحُ الشفّاف)

«لا تنحنِ؛ لا تساوِمْ؛ لا تقولبْ نفسكَ بناءً على الموضة. بل طاردْ هواجسكَ الأشدّ عنفاً بلا هوادة.»

فرانز كافكا

القصّة

الشبحُ الّذي لم أرَ

«أشـرفُ لك أن تُـكرَه لما أنـتَ عليه،
مِن أن تُحَب لما لستَ عليه.»

أندره جيد

سألتْني صديقةٌ عزيزة ذات يومٍ: «ما الّذي جعلكِ على هذا القدر من التحيّز للصدق، ومن التصميم على قول الحقيقة تماماً كما هي، حتى وإنْ عنى ذلك إلحاق الضرر بصورتكِ عند بعض الناس؟».

لم يكن قد خطر لي هذا السؤال من قبل، لكنّي فوجئت بنفسي أجيب عنه بسهولة: «الأمر وما فيه أنّني أمضيتُ ما يزيد على نصف حياتي، أكـذب: كنتُ أكذب في كلّ شيء تقريباً، وعلى كلّ الناس تقريباً، لكنّ الأخطر من ذلك كلّه، أنّني كنتُ أكذبُ على نفسي.»

كنتُ أعتبر الكذب ضرورة، ولعلّه كان حقّاً كذلك في العالم الّـذي كنتُ عالقةً فيه: عالمٌ صـارمٌ، عنيف، قـاسٍ، محبِط، مهدِّد، مُقيِّد، وبائس إلى حدّ مؤلم. في عالمٍ كهذا، كان لا بدّ من أن أكذب لأنجو بجلدي. فقد كنتُ فتاةً طموحة، لكن مزعزَعة الثقة، شُجاعة لكن مخنوقة، ظمأى لكن عازلة للمياه. أتراني أحـاول الآن تبييض

صفحتي وتبرئة نفسي بكلامي هذا؟ ربّما. لا أدري. لكنّني أعلم أنّني بتُّ أتوق إلى الانتقام ممّا كنتُ عليه. أتوق إلى رفع التحدّيات ونيل الإعجاب على فجاجتي، ممّا قد يجعل دوافع كذبي في الماضي، أشرف من دوافع صدقي اليوم.

***

ما زلت أذكر كذبتي الأولى. كنتُ يومذاك في الصفّ الخامس الابتدائي: أُغميَ على إحدى زميلاتي أثناء صفّ الإنكليزيّة، وما كادت تستعيد وعيها حتّى أطلعتنا على سبب إغمائها، إذ قالت إنّها رأَتْ «شبحاً». لن أشكّك في صدقها، فلا بدّ من أنّها كانت مقتنعة، لسبب من الأسباب، بأنّها رأت شبحاً فعلاً. لكن سرعان ما تحوّل الأمر إلى وباء. ففي كلّ يومٍ، راحت فتاة أو اثنتان أو ثلاث من صفّي يفقدن وعيهنّ، أو بالأحرى يتظاهرن بذلك، مدّعيات أنّهنّ هنّ الأخريات رأين الشبح المزعوم. دبَّت الحيرة في قلوب المعلّمين والمعلّمات، وانتشر الخبر بسرعة البرق، وصار صفّنا «المسكون» حديث الساعة في المدرسة بأسرها. لا بل راح الشبح يتّخذ هيئة محدّدة، ويكتسب ملامح واضحة تتراكم يوماً بعد يوم، رؤيا بعد رؤيا، مع كلّ فتاة يُغشى عليها. جرّبت الراهبات شتّى السبل لحلّ المشكلة، بدءاً من الصلوات، وصولاً إلى المواعظ في الصدق، مروراً بالخُطَب عن عدم وجود الأشباح (خطبٌ، في المناسبة، كانت تفتقر إلى أدنى ذرّة من الصدقيّة، بما أنّ الراهبات العزيزات أنفسهنّ كنّ يؤمنّ بوجود كائنات خارقة للطبيعة). لكنّ ظاهرة الإغماء ورؤية الشبح استمرّت. وقد عزّز هذه الظاهرة، وشجّع الكثيرات على المضيّ بها، تعليق الدروس عند وقوعها.

أما حافزي أنا فكان مختلفاً. لم أكن أهتمّ بتوقيف الصفوف، بل على العكس، كنتُ أستمتع بالتعلّم، وكان وقتي في المدرسة أفضل

أوقات نهاري. حافزي أنا، كان الاهتمام الّذي كانت تناله الفتيات اللواتي يُغمى عليهنّ، إذ كنّ يتحوّلن مباشرةً إلى محطّ انتباه الجميع، ونواة أحاديثهم وأحاديثهن. شعرتُ بالغيرة. لماذا لا يظهر الشبح اللعين عليَّ أنا؟ طبعاً جزءٌ منّي كان يدرك أنّه مجرّد كذبة، أمّا الجزء الآخر – الجزء الأكثر جموحاً وخيالاً وتعطّشاً إلى البروز – فكان يتمنّى تصديق مسألة الشبح، ويتوق، خصوصاً، إلى لفت انتباهه. انتظرتُ وانتظرتُ، لكنّ الشبح لم يلتفت إليَّ قطّ، حتى قرّرتُ ذات يومٍ أنّ وقت الانتظار قد ولّى، وأنّ دوري قد حان لأراه، أي لأدّعي الإغماء وأحظى بانتباه الجميع، من الأساتذة إلى التلامذة. لا بل قرّرتُ أيضاً ما هو لون قبّعته (كانت خضراء في المناسبة).

ما إن قمتُ بمسرحيّتي الصغيرة التافهة تلك، حتّى شعرتُ بالخجل أكثر منّي بالرضى. ولكن كان الأوان قد فات على التراجع. في تلك اللحظة، أصبحت الفتيات اللواتي لم يستسلمن لإغراء قصّة الشبح محطّ غيرتي، لشجاعتهنّ، لصدقهنّ، لعدم خضوعهنّ للرغبة في الاندماج، لعدم توقهنّ إلى الانتباه الّذي احتجنا إليه نحن الأخريات. هذا عدا نظرة الشكّ والريبة الّتي أخذن يرمقننا بها نحن معشر الكاذبات، كأنّهنّ يقلن لنا: «نعلم تماماً ما تفعلن. عيب!».

بعد وقت، انحسر انتشار الوباء، وتوقّف الشبح المزعوم عن زيارة صفّنا. لكنّ شبحاً آخر كان قد وُلد: شبحٌ في رأسي، اسمه الخزي. كان يرتدي قبّعة حمراء.

***

لم تكن قصّة الشبح هذه، والندم المتأتّي عنها، رادعاً كافياً، أو درساً يمنعني من الكذب. على العكس، شعرتُ كأنّني عبرتُ إلى الضفّة الأخرى من النهر، ولم يكن شيء ليعيدني إلى برّ الصدق بعد الآن.

كأنّني بتُّ موصومة نهائيّاً، وغير قابلة للخلاص. فاخترتُ أن أكذب أكثر، أكثر. ربّما اخترتُ الكذب لأنّه أكثر تسليةً ومتعة، وأكثر إبداعاً وخلقاً. ربّما اخترتُه لأنّه أسهل من قول الحقيقة، وأكثر إثارةً منها، أقلّه على المدى القريب. ربّما اخترتُ الكذب أيضاً وخصوصاً لأنّ البوح بحقيقة حياتي آنذاك، كان يمكن أن يكون أكثر مرارة وبعثاً على الشعور بالخزي.

عندما بلغتُ منتصف العشرينيّات من عمري، طفح كيلي. كنتُ قد هربتُ لفترة طويلة، حتّى بتُّ عاجزة عن رؤية نفسي والتعرّف إليها. كانت هناك أقنعة كثيرة ملتصقة بوجهي، وعدد لا يُحصى من الأكاذيب عالقٌ في حنجرتي، وكمّ هائل من الخدع جاثمٌ على صدري، حتّى بتُّ عاجزة عن التنفّس: «نعم، أنا مغرمة بكَ. لا، لم أخنكَ يوماً. نعم، سأكون دوماً إلى جانبكَ. لا، لستُ نرجسيّة البتّة. نعم، أوافقكَ الرأي. لا، لستُ أشعر بالملل. نعم، هذا الفستان يليق بكِ كثيراً. لا، لستَ تتصرّف بغباء. نعم، أصدّقكَ. لا، لستُ متملّكة. نعم، أثق بكَ. لا، لن أتركَكَ أبداً. نعم، أحبّ جسمي. لا، لا يهمّني أن أصبح مشهورة. نعم، لقد بلغتُ النشوة...».

كانت أكاذيبي تتراكم وتتراكم، حتى بتُّ أشعر في لحظة ما بأنّني واقفةٌ على قمّةٍ وهميّة أعلى من قمم الهيمالايا. آنذاك علمتُ أنّ الوقت قد حان للحفر من جديد، للنزول إلى حقيقتي. حان الوقت لأعود أدراجي، وأجتاز النهر نحو الضفّة الأولى.

لا أدري من أين أتتني تلك الحاجة الملحّة للرجوع إلى زمن ما قبل الكذب. حسبي أنّها نتيجة تراكم وليست نقطة تحوّل مفاجئة: نتيجة رغبتي في أن أصير كاتبة ذات قيمة، وإرادتي في أن أكون شخصاً أفضل، وتوقي إلى أن أنمو وأنضج وأتحرّر. لكنّني أدرك أيضاً، في قرارة نفسي، أنّ تلك الحاجة انبثقت كذلك من زاوية معتمة في

قاع ذهني، زاوية تعجّ بالشكوك والتساؤلات والمخاوف ومشاعر الذنب والضعف والمرارة؛ زاوية تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ قاعة درسِ الصفّ الخامس الابتدائي، وكان عليَّ أن أواجهها، وأعرّضها للضوء، وأنتصر عليها.

***

اليوم، عندما أكتب أو أفكّر أو أتكلّم أو أتصرّف، لا أستخدم الـ«فوتوشوب»؛ لا أحاول أن أظهر أكثر جمالاً ولا أكثر قوّةً ولا أكثر شجاعةً. صحيح أنّني أبدو أحياناً مغالية، لكنّه لشغفٍ فيَّ، أكثر منه لنيّةٍ لديَّ في خداع الآخر. لا بل بتُّ أتقصّى العيوب والتصدّعات والتقصير، وأسلّط الانتباه عليها. بتُّ أجاهر بأخطائي وأتباهى بها. فأنا صرتُ أعرف حقّ المعرفة أنّ الناس (أقلّه أولئك الّذين آخذ آراءهم في الاعتبار) سيبقون على حبّهم وتقديرهم لي، لا بل قد يتضاعف احترامهم لي، لأنّني لا أحاول أن أبدو «أكثر» ممّا أنا عليه فعلاً. هنا يفرض سؤال آخر نفسه عليّ: صدقٌ من هذا النوع، يثير إعجاب البعض، أليس ضرباً آخر من ضروب الـ«فوتوشوب»؟

أعشق أن أكون شفّافة، ففي الشفافيّة قوّةٌ. أعشق أن أكون صادقة، ففي الصدق تصديعٌ للقوالب الجاهزة. أعشق أن أكون فظّة، ففي الفظاظة حصانة. أعشق تحدّي عائلتي ومجتمعي وتقاليدي ووطني وعالمي وأنايَ. أعشق ذلك نعم، لكنّني أدرك في الآن نفسه أنّه فعلٌ ينطوي على شيء من الغرور. قد يكون غروراً «نبيلاً» وجذّاباً... لكنّه يبقى غروراً.

سُئلتُ مرّات كثيرة عمّا إن كنتُ أستمتع بالاستفزاز، أي استفزاز الناس والمجتمع، وخاصّة بعدما بدأتُ أُصدر مجلّتي الثقافيّة الإيروتيكيّة «جسد». لا أظنّ أنّني منحتُ يوماً إجابة كاملة

عن هذا السؤال. لطالما أشرتُ إلى رغبتي في هزّ المجتمع وترك أثر في الأشخاص والذهنيّات، خصوصاً في الشؤون الّتي أعتبرها حيويّة، وتلك إجابة صادقة مئة في المئة. لكن نعم، أنا أستمتع أيضاً، ومن دون شك، بالاستفزاز. عندما يحفّزني، مثلاً، موضوع مثير للجدل دون سواه، يعني ذلك أنّني أتوق إلى تحسين عالمي وعالم الآخرين، لكنّه يعني أيضاً أنّني أستمتع بالاستفزاز. عندما أختار المفردات الفجّة بدل الإيحاءات والتلميحات، يعني ذلك أنّني أحبّ تسمية الأشياء بأسمائها، لكنّه يعني أيضاً أنّني أستمتع بالاستفزاز. عندما أنحاز إلى عفويّتي وأترك الدفّة لها، يعني ذلك أنّني أؤمن بمفعول الصدق، لكنّه يعني أيضاً أنّني أستمتع بالاستفزاز. صحيح أنّني مقتنعة شخصياً بأنّ الصدم أكثر فعاليّة من التصعيد التدريجيّ، لكنّ الصحيح أيضاً أنّني أستمتع بخلق زلزال كاسح، أكثر بكثير من استمتاعي بالهمس في آذان الناس. لا أدري أيّ المقاربتين أفضل: مقاربتي أنا، أم مقاربة أولئك الّذين يتمتّعون بفضيلة الحكمة والحنكة والتأنّي. حسبي أنّ المقاربتين ضروريّتان لكي نصل إلى التغيير المشتهى، لكنّني أعلم أنّني لا أستطيع التصرّف مثلما يفعلون، إذ تنقصني موهبة الصبر واللسان المعسول واللغة المنمّقة. الأكيد أنّني كان يمكن أن أكون دبلوماسيّة فاشلة، ولاعبة بوكر أسوأ.

لحسن حظّي، تمكّنتُ من أن أكون مَن أنا عليها اليوم، ومَن لطالما أردتُ أن أكونها: «مجرّد» كاتبة.

***

الآن، كلّ مرّة أشعر فيها بالميل إلى الكذب أو التصنّع أو الإخفاء أو التجميل (وهذا يحصل غالباً)، أتذكّر ذلك الشبح الّذي لم أره في الصفّ الخامس، فأفشي مباشرةً مكنونات صدري كلّها، بصراحة صادمة وبقلّة

حياء ونقص في اللباقة أحياناً، كأنّني أصفع ذلك الشبح. أو بالأحرى: كأنّني أصفع نفسي.

المَقصِد
نادٍ للتعرّي

«خطآن يرتكبهما الإنسان في الطريق إلى الحقيقة:
ألّا ينطلق فيها، وألّا يكملها إلى النهاية.»
بوذا

العالم الإنسانويّ نادٍ للتعرّي.

ليس واحداً من تلك النوادي الّتي تنزعين فيها ملابسكِ، بل النوع الّذي تنزعين فيه أقنعتكِ.

أنتِ أمام خيارين: إمّا أن تتعرّي، وإمّا أن تتفرّجي.

تفضّلين، طبعاً، أن تكوني من جمهور المتفرّجين: إنّه الخيار الآمَنُ والأكثر تسليةً وإمتاعاً. فبينما يعرض المتعرّون ذواتهم العزلاء تحت أنظاركِ، تحظين بامتياز الحكم عليهم والنفور منهم والهزء بهم واستهجان حقيقتهم. الأهمّ من ذلك كلّه، تحظين بامتياز الشعور بالفوقيّة عليهم، من دون أن يستطيع أحدٌ منازعتكِ عليه. إنّ قناعكِ الّذي تُحكمين وضعه على وجهكِ، والتنكّر الّذي تجيدين ارتداءه بمهارة، يؤمّنان لكِ ما تحتاجين إليه من احترام وإعجاب واستحسان، وتبجيل حتّى. لا أحد يمكنه أن يحزر ما يقبع تحت زيّكِ الأنيق،

الخالي من الشوائب. لا أحد يمكنه أن يسخر من عيوبكِ، أن يُصعق لأخطائكِ، أن ينتقد مكامن ضعفكِ، وأن يهزأ بمخاوفكِ. أنتِ يا عزيزتي شخصٌ «مثاليّ».

أقلّه في رأيكِ أنتِ.

لكنّكِ لستِ مثاليّةً. قد تبدين كذلك، لكن لا. قد تفلحين في إقناع الجميع بالأمر، الجميع ما عدا نفسك. لا، لستِ مثاليّةً. لديكِ هزائمكِ، عيوبكِ، ضعفكِ، أخطاؤكِ، وأسراركِ المعتمة الدفينة، تماماً كغيركِ، وأنتِ أدرى بذلك، لكنّك تتجاهلين هذا الواقع، تنكرينه وتخفينه. هذا لا يجعلكِ مثاليّةً، بل ممثّلةً بارعةً فحسب.

***

العالم الإنسانويّ نادٍ للتعرّي، أجل.

ليس واحداً من تلك النوادي المترفة الفخمة، بل نادٍ قاتم، رخيص، مخيف.

ما يتدفّق هناك ليس الشمبانيا، بل مزيج من الدم والدموع. ما يصدح في الأجواء ليس موسيقى الصالونات، بل صرخات الألم والخزي والندم. المتعرّون الواقفون تحت الأضواء لا يكشفون محاسنهم ومفاتنهم: لا النساء يعرضن أثداءهنّ الجميلة، ولا الرجال يعرضون مؤخّراتهم المشدودة. بل هم يعرضون أكثر ما فيهم هشاشة وبشاعة وضعفاً. ليسوا مثيرين، لا. إنّهم بائسون... ليسوا جذّابين، لا. إنّهم حقيقيّون.

أمّا أنتِ، من الناحية الأخرى، فقابعةٌ في ركن المحظوظين. تجلسين إلى مائدةِ ذوي الشأن والأهمّية، على كنبتكِ المخمليّة الحمراء، ترتشفين مشروبكِ اللذيذ بتؤدة، وبالكاد تنظرين ناحية أولئك البؤساء. تروحين تفكّرين بينك وبين نفسكِ: «يا لهم مساكين

ضعفاء... لا بدّ من أنّهم يفعلون ما يفعلونه مرغمين أو لاستدرار الشفقة.. كم أنا محظوظة... أنا أفضل منهم بمليون مرّة».

لكنّهم ليسوا مساكين ولا ضعفاء كما تتوهّمين، ولا يفعلون ما يفعلونه مرغمين أو لاستدرار الشفقة، ولستِ محظوظةً كما يُهيّأ لكِ، وقطعاً أنتِ لستِ أفضل منهم.

أنتِ، يا عزيزتي، مخادِعة. لا أكثر، لا أقلّ.

تـراودكِ شكوكٌ حيال ذلك لبرهةٍ، تراجعين أفكاركِ و«يلعب الفأر في عبّكِ». لكنّكِ سرعان ما تستعيدين رباطة جأشكِ. ما من داعٍ للقلق. ما دام أحد لم يلاحظ شيئاً، فأنتِ على ما يرام.

لكنّكِ لستِ على ما يُرام. تبقى الشكوك على إلحاحها وإزعاجها: ما لها لا تتركك وشأنكِ؟ تشربين المزيد من الويسكي، تنظرين إلى حذائكِ الجلديّ الجميل، تحاولين تذكّر حسد أصدقائكِ المزعومين، تحاولين استعادة تبجيل محيطكِ لك، لكنّ الشكوك اللعينة لا تتركك في حالكِ. على العكس، ترينها تزيد من إحكام قبضتها عليكِ. تسمعين كلمتين لا تنفكّان تتخبّطان في ذهنكِ وتقرعان جدران رأسكِ: «أنا مخادِعة». تعترضين، تستنكرين: «لا، لستُ مخادِعةً. أنا قويّة فحسب».

في تلك اللحظة، ينزع أحد المتعرّين قناعاً جديداً من أقنعته، فتتذكّرين تلك المرّة الّتي خنتِ فيها شريككِ، أو تلك المرّة الّتي تخلّيتِ فيها عن صديقةٍ مخلصة بلا سبب. تتذكّرين المرّات الّتي قلتِ فيها لأحدهم «ثقْ بي» قبل أن تغدري. تتذكّرين المرّات الّتي تصرّفتِ فيها بوضاعة، الّتي أخلفتِ فيها وعودكِ، الّتي غطّيتِ فيها عثراتكِ، الّتي أنكرتِ فيها أخطاءكِ، الّتي تسبّبتِ فيها بالألم لمحبّيكِ، الّتي عظّمتِ فيها مؤهّلاتكِ، الّتي ضخّمتِ فيها مناقبكِ.

تتذكّرين كلّ مرّة طعنتِ فيها في الظهر، كلّ مرّة قلتِ نعم ولم تعنيها، وكلّ مرّة قلتِ لا وكانت مجرّد كذبة.
تتذكّرين أنّكِ «إنسانة».

***

رغم ذلك، تظلّين تقاومين.

لستِ مقتنعةً بعد، لستِ مقتنعةً بجهوزيّتكِ تحديداً. تبقين على خوفكِ وحرجكِ. الأهمّ من ذلك، تبقين على غروركِ، وإيثاركِ لأناكِ العمياء. تتمسّكين بأناكِ هذه كما لو أنّها درع واقية، درع تنصبينها بينكِ وبين حقيقتكِ. درع تنصحكِ بإكمال تمثيليّتكِ الصغيرة، والاستمرار في الادّعاء والتظاهر والتصنّع. درع تخبركِ أنّ هذا هو السبيل الوحيد لتكوني فائزةً، وأنّ المخدوع الحقيقيّ هو ذاك الّذي يكفّ عن خداع الآخرين. هي تخبركِ أيضاً أنّ الحياة خشبة مسرح وليست حلبةً للصدق، وأنّكِ بنزعكِ أقنعتكِ إنّما تخاطرين بخسارة تلك الصورة المثاليّة الّتي دأبتِ طويلاً على رسمها.

لكنّها، أناكِ العمياء تلك، لا تخبركِ أنّكِ تخسرين ما هو أفدح: جوهركِ. جزءٌ آخر منكِ يُطلعكِ على ذلك: شعلة الصدق في روحكِ. لم تكوني تعلمين بوجودها فيكِ، أنتِ الّتي تعتبرين نفسكِ واقعيّةً وعملانيّةً؛ أنتِ الماكيافيليّة الماكرة، أنتِ البراغماتيّة الشاطرة. لكنّها موجودة فيكِ. فيكِ وفي الجميع.

ترتعبين. تفكّرين في نفسكِ: «ماذا سيقولون عنّي؟ بِمَ سيتهامسون عندما أُدير ظهري؟ هل يستمرّون على حبّهم لي؟ هل يتخلّون عنّي؟ هل يكفّون عن احترامي؟ أتراهم سيحتقرونني ويسخرون منّي؟».

لكنّ شعلة الصدق في روحكِ، الساهرة أبداً عليكِ، تمسككِ من يدكِ وتجرّكِ نحو أسئلة أخرى: «أتراهم فعلاً يحبّونني أنا، أم يحبّون مجرّد صورة زائفة عنّي؟ أتراهم يستحقّون هذا العناء الّذي أتكبّده؟ ألم أتعب بعد؟ ألم أتعب من هذه الأقنعة كلّها؟ ألا أستحقّ المزيد؟»

بلى... تستحقّين المزيد.

آنذاك تخلعين حذاءكِ الباهظ الثمن وأناكِ العمياء. تخلعين مخاوفكِ، كبرياءكِ، وشعوركِ بالفوقيّة. تخلعين أقنعتكِ الواحد تلو الآخر. تخلعين زيفكِ كلّه وتتّجهين إلى هناك، إلى الحلبة، حيث المتعرّون والمتعرّيات الشجعان الآخرون. تجفلين بدايةً من الأضواء القويّة المسلّطة عليكِ، تجزعين من صرخة أحد المتفرّجين المصدومة، تضيقين بالعقول المغلقة من حولكِ. لكنّكِ سرعان ما تشيحين بوجهكِ عن ذلك كلّه، تصبّين تركيزكِ على الإلهام الّذي تبثّينه في البعض، وعلى العزيمة الّتي تخلقينها في المتردّدين. تكملين. تكملين حتّى النهاية، فأنتِ الآن على انسجامٍ مع ذاتكِ. تشعرين بنفسكِ راضية، هانئة، صلبة، وأكثر بعد... تشعرين بها حيّة نابضة.

***

العالم الإنسانويّ نادٍ للتعرّي، وأنتِ أصبحتِ نجمته الأولى. ما من شيء قادر على إخافتكِ بعد الآن.

عريكِ صار درعكِ.

المُحاوَرة
لِمَ الصدق؟

«ينبغي ألّا نخجل من قولِ ما لا نخجل من التفكير فيه.»

ماركوس توليوس شيشرون

أنا: لماذا تنصحني باستمرار بالكذب؟

الوسواس: لأنّ ثمّة مَنْ لا يستحقّ الحقيقة.

– كلامكَ صحيح. لكنّه يفترض أيضاً أنّ ثمّة مَنْ يستحقّها. على سبيل المثل، ألا أستحقّها أنا؟

– أنتِ لا تحتاجين إلى إعلانها لكي تملكيها.

– بلى. فالحقيقة، مدفونةً، تتملّكنا بدل أن نملكها. هي تتحلّل وتصير عاراً وخوفاً. يؤول بنا الأمر إلى امتلاك صدئها وعفنها وديدانها فحسب. بذلك نتيح لها أن تصير طاغية فاسدة تتحكّم بنا، بدل أن نحتفي نحن بجمالها.

– عن أيّ جمال تتحدّثين؟! غالباً ما تكون الحقيقة بشعة وقاسية. جلّ ما أفعله هو دفعكِ إلى إظهار جانبكِ الأبهى للعالم.

– إظهار الجانب الأبهى لا يعني إخفاء الأسوأ أو نكرانه. أنا بذلك أكون نصف ذاتي فقط. ثمّ، مَنْ أكون أخدع حقّاً؟

– الجميع.

– لا. أنا المخدوعة الوحيدة.

– ولكن ألا تسمعين التهليلات؟ ألا ترين نظرات الإطراء الموجّهة إليكِ؟

– إنّهم يصفّقون للكذبة، لا للكاذبة. للتمثيليّة، لا للممثّلة.

– ما الفرق؟ إنهم يقدّرونكِ. أليس هذا هو المهمّ؟

– إنّهم يقدّرون وهمي فحسب. أنتَ تحثّني على أن أصبح أسيرة كذبي.

– هل تصدِّقين حقّاً أنّ «الحقيقة تحرّر»؟ ترّهات! مجرّد ترّهات! لقد ضقتُ ذرعاً بهذه الكليشيهات.

– لا أعرف إذا كانت الحقيقة ستحرّرني، لكنّ الأكيد أنّها ستزيح ثقلاً عن كاهلي.

– عن أيّ ثقلٍ تتحدّثين؟ مَن قال إنّكِ ترزحين تحت ثقلٍ أصلاً؟

– عينايَ المتعبتان تعكسان ذلك، ومثلهما ظهري المقوّس، وكتفايَ المنحنيتان، وخطواتي البطيئة.

– فليكنْ... أن ترزحي تحت ثقل أفضل من أن تظهري بمظهر الضعيفة.

– إنّ ما أخفيه يُضعفني أكثر ممّا قد أجاهر به. قل لي، أيّهما أخطر؟ سكّينٌ يُرمى في اتجاهي وأستطيع تفاديه، أم سرطانٌ خبيث ينهشني خليّةً خليّةً من داخل؟

– هل حاولتِ أن تكوني عاريةً وعزلاء من قبل؟ أتعلمين كم أنّ ذلك مرعب؟

– الحياة كلّها مرعبة أصلاً، وخاصّة لأولئك الّذين يرغبون في أن يكونوا صادقين مع أنفسهم والآخرين. لا بل إنّ الصدق لم يكن يوماً فطرة معزّزة لدى البشر. على العكس، هو يعمل عكس غرائزنا الّتي تدفعنا أولاً إلى الصمود، وإلى حماية أنفسنا من الأحكام المسبّقة والتهميش والكره.

– أراكِ إذاً توافقينني الرأي.

– لا. أنا أقول إنّني أفهمكَ فحسب. هذا مختلف.

– ماذا أستنتج من حديثكِ؟ ماذا تريدين تحديداً؟

– أريد ألّا أسمح لأحد بأن يعرّيني من عربي. أريد أن أحرّر نفسي من سمعتي ومن نظرة الناس إليّ. أرفض أن أعيش حياتي وأنا أحاول باستمرار قولبتها وقولبة نفسي إرضاءً للآخرين. أنا لن أستطيع إرضاء الجميع أصلاً: لأعمل إذاً على إرضاء نفسي في الأقلّ. لكنّ الإرهاب الحقيقيّ الّذي يحول دون صدقنا، لا ينبثق من أولئك البعيدين عنّا، الّذين يُصدرون أحكامهم علينا ويهمّشون ويكرهون.

– من أين ينبثق إذاً؟

– من الّذين نحبّهم ويحبّوننا. قد يكون الحبّ أداة ترهيب أيضاً، ومن أكثرها حثّاً على الكذب. نكذب على مَن نحبّ لئلّا نجرحهم، لئلّا نخيّب ظنونهم، لئلّا نخسرهم.

– لكنّ الحاجة إلى الحبّ، والرغبة في حماية مَن نحبّ، جزء من الطبيعة الإنسانيّة، أليس كذلك؟

– هناك تسميةٌ أخرى لذلك.

– ما هي؟

– الخوف من الرفض.

– حسناً... فليكنْ. لكنّ هذا الخوف إنسانيّ بدوره.

– أصبتَ. هو إنسانيّ، لكنّه ليس إنسانويّاً.

– ماذا تعنين بذلك؟

– أعني أنّ النزاهة مشرّفة أكثر من المحافظة على وهمٍ بأيّ ثمن، والشفافية أكثر إرضاءً من التمثيل. إنّه تطوّر لا بدّ منه، على الرغم ممّا قد يسبّبه من عذابات وأضرار ومشاقّ. همّ الإنسان أن يتقن أداء دورٍ فرضه على نفسه، بينما همّ الإنسان الانسانويّ أن «يعيش» حقيقته.

– في الكذب أحياناً شيءٌ من المراعاة، أي شيء من الإنسانويّة. ألا تظنّين ذلك؟

– أنتَ تخلط بين المراعاة والشفقة على الآخر، الّتي غالباً ما تتضمّن شعوراً بالفوقيّة، وهذه ليست قطعاً من مزايا الإنسان الإنسانويّ. لكي نصير إنسانويّين، نحتاج إلى الانتقال من موقع التنازل إلى موقع الندّية، بما يكتنف ذلك من قسوة لا مفرّ منها أحياناً.

– أنتِ على خطأ! ما تحتاجين إليه حقّاً هو الاستقرار. إنْ عنى ذلك الكذب بين حين وآخر، فليكنْ!

– أن أكذب يعني أن أرضى بأن يُكذَب عليّ.

– لا بأس. أقلّه تكونين واقفة على أرض صلبة.

– أفضّل أن أكون بهلوانة تسير على حبل رفيع: لا شيء يعادل تلك الثمالة، وما يرافقها من أدرينالين.

– قد تسقطين.

– أجل، قد أسقط.

– تعترفين إذاً بخطورة الصدق؟

– طبعاً. وأين المشكلة في ذلك؟

– ألا يعني ذلك أنّكِ متهوّرة؟

– أنتَ توسوس لي أن أهرب من ذاتي: ليس هناك أكثر تهوّراً من ذلك.

– وماذا لو لم تكوني جاهزةً بعد؟

– جهوزيّتي لا تحصل من تلقاء نفسها: أنا الّتي تنحتها وتصنعها وتصقلها يوماً بعد يوم. أنا الّتي تعمل عليها مثلما يعمل مهندسٌ على طائرة، برغيّاً بعد برغيّ، حتى تصير جاهزة للإقلاع.

– المشرفون علينا يكذبون، رؤساؤنا يكذبون، قادتنا يكذبون، اقتصاديّونا يكذبون: هل يستحقّ عالمٌ بغيض، كاذب كهذا، صدقنا؟

– طبعاً، لأنّ الصدق ليس انقلاباً فرديّاً فحسب. إنّه مُعدٍ، تماماً كالكذب. إنّه تمرينٌ يعدّنا لمجابهة كلّ الترهيبات الّتي يضعها هذا العالم البغيض، كما سمّيتَه، في طريقنا. إنّه زلزال قاهر ضدّ الخبث والقطيعيّة وغسل الأدمغة. إنّه ثورة على القمع والتسلّط والظلم والجور والعنصريّة والتعصّب والتمييز والكره. إنّه صرخة رفضٍ في وجه اللامساواة والرقابة والتطرّف والاستبداد والنفاق وشريعة الغاب. في اختصار، يقف الصدق في وجه كلّ ما يحوّل الإنسان إلى آلةٍ مجرّدة من أيّ رأي وصوت وخيار. يقف في وجه كلّ ما يحول دون إنسانويّتنا. من هذا المنطلق، تصبح تعرية النفس والمجاهرة بها أكثر من محض حقّ أساسيّ: تصبح سلاحاً سياسيّاً فتّاكاً.

– ولكن أليست الحقيقة ذات طبيعة نسبيّة؟

– بلى، قد تختلف بعض الحقائق أحياناً باختلاف الزاوية المنظور منها، لكنّها على الأقلّ تحمل كلّها في طيّاتها التوق السامي نفسه إلى الصدق والشفافيّة.

– سؤالٌ واحد بعد: هل يمكن أن نفوز يوماً في معركة صعبة كهذه؟

– معركتنا ضدّ الكذب، سواء أكانت على الصعيد الشخصي أم العام، ليست معركة نفوز بها مرّةً واحدة. هي معركة لا تنتهي؛ معركة دائمة ضدّ ميلنا إلى الاستسلام والإذعان والصمت والاختباء والسير

في ظلّ الحائط. هو ميلٌ يرافقنا ويدور معنا كلّما دارت بنا الأرض، فلا الدوران يكفّ، ولا هو يتركنا وشأننا. ميلٌ سلس، متملّق، عذب ومُغرٍ، يعدنا بحياة مريحة بلا هموم، شرط أن نبيعه ذواتنا «فقط».

أقول: «فقط».

وصيّة أفلاطون

أن تمثّلي أو أن تحيي

أتظاهرُ بأنّي نفسي
لكنّ كائنات مجهولة تعيشني،
عينان ليستا عينيَّ تريان العالم،
وأجسادٌ أخرى تمشي بحياتي.

تائهةً أغيب في سرابي
وأتكاثر حتى تتعب الأرقام.
لا أحد يناديني ولا أحد يعرفني.
الكلماتُ
وحدها
على مهلٍ تصنعني.

أتظاهرُ بأنّي معكم
لكنّ ظلالي تنوب عني.
إن كنتُ لم أولد بعد
وسبقني الوهم إليكم،

فلأنّي فضّلتُ أن أتأخّر قليلاً
حتى تأتي لحظتي،
فيختفي الّذين كنتهم
وأصير أنا نفسي.

رحلة المفكِّر

(هو السائلُ المتسائلُ النيِّرُ المنير)

«أفضل طريقة للحؤول دون فرار سجين، هي
ألّا تدعه يعرف أنّه في سجن.»

فيودور دوستويفسكي

القصّة

كان اسمها وفاء

«لكنّ الآلهة العاجيّة

والآلهة الأبنوسيّة

والآلهة الّتي من ألماس

هي مجرّد دمىً سخيفة

من صنع الناس.»

لانغستون هيوز

في البدء كنتُ طبقاً مجلّداً.

كنتُ أحتوي مسبّقاً على المكوّنات الأساسيّة كلّها. جلّ ما كان ناقصاً هو وضعي في الفرن، أي رحم أمّي – عذراً على التشبيه الّذي لم أستطع مقاومة إغرائه –، لكي أكتمل وأصبح جاهزة للاستهلاك.

لا أتحدّث هنا عن الجينات، بل عمّا يُعرَف بالهويّة أو الإرث:

أولاً، العرق: عربيّة.

المعنى الدقيق: أنتمي إلى شعب ساميٍّ، تنحدر أصوله من شبه الجزيرة العربيّة وجوارها، يقطن منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

المعنى المتداول: لستُ من الغرب، مع ما يترتّب على ذلك من صيغ للنفي: أي لستُ متطوّرة، لستُ عصريّة، لستُ منفتحة، لستُ متحضّرة، لستُ أيّ شيء إيجابيّ يمكن أن يخطر على بال.

ثانياً، الجنسيّة: لبنانيّة.

المعنى الدقيق: مواطنة من لبنان، بلدٌ يقع غرب القارّة الآسيويّة، شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط، وهو مسقط الفينيقيّين ومسكنهم الأوّل.

المعنى المتداول: تجّارٌ بالفطرة؛ محكومون بلوثة الحرب الأهليّة؛ ذاكرةٌ قصيرة؛ الحرب الأهليّة؛ لا استقرار؛ الحرب الأهليّة؛ فساد؛ الحرب الأهليّة؛ نساءٌ جميلات؛ الحرب الأهليّة؛ حسّ الأناقة؛ الحرب الأهليّة؛ أكلٌ شهيّ؛ الحرب الأهليّة؛ حبّ السهر؛ انقساماتٌ طائفية... والحرب الأهليّة أيضاً وأيضاً.

ثالثاً، الدين: مسيحيّة كاثوليكيّة.

المعنى الدقيق: عضوة في الكنيسة الكاثوليكيّة، مؤمنة بالثالوث الأقدس، يرأس كنيستي أسقف روما أو ما يُعرَف بالبابا.

المعنى المتداول: إلهي (الّذي يصدف – يا لحسن حظّي – أنّه الإله الحقّ الوحيد من بين آلاف الآلهة الّتي عرفها البشر على وجه الأرض) رُزق ابناً من امرأة اسمها مريم، بلا خطيئة. المرأة مخلوقة من ضلع الرجل. خالقي يراقبني من فوق باستمرار، حتّى عندما أكون في الحمّام. وإذا تُوفّي رضيع قبل نيله سرّ المعموديّة، فقد يحترق في نار جهنّم.

رابعاً، الجندر: أنثى.

المعنى الدقيق: أنتمي إلى جنس ينتج البويضات، قادر على الحَمْل، ولديه كروموزوم مزدوج من نوع «إكس».

المعنى المتداول: عاطفيّة، ضعيفة، غير عقلانيّة، ساذجة، مهووسة بالزواج، آلة لتفقيس الأولاد، إلهةٌ في المطبخ... وطبعاً، دعونا لا ننسى العنصر الأهمّ: الثديان.

هكذا بدأتُ مشواري في الحياة، مع هذا الأرشيف الثقيل، وهذه الصور النمطيّة المبتذلة المتضمَّنة في شهادة ميلادي. الحقّ يقال، ليس هذا بأفضل إرث قد يتمنّاه المرء لنفسه، لكنّ الأمر وما فيه أنّني لم أقرّر ولم أصنع ولم أختر بإرادتي أيّاً من خصائصي هذه. لم أقم بأيّ شيء لكي أستحقّ هذه المكوّنات. كانت بمثابة حقيبة إلزاميّة ولدتُ معها، ويُفترض بي أن أحملها معي أنّى ذهبتُ.

كنتُ محض منتَج، لا شخصاً. ليس بعد في كلّ حال.

***

ثمّة صورةٌ عالقة في ذهني من ثمانينيّات القرن الماضي، تعود إلى فتاة في فرقة كشّافة البنات الّتي ألحقني أهلي بها يومذاك. كان اسم الفتاة وفاء، وكانت «مختلفة» عنّا جميعاً. كانت هي الأخرى تحمل حقيبة إلزاميّة تأخذها معها أنّى ذهبت، وكانت تلك الحقيبة تحتوي، في ما تحتوي، على كلمة مسلمة: كلمة جعلتها محطّ أنظار الكثيرين في «المنطقة الشرقيّة» من بيروت حيث نشأتُ. من الطبيعي ألّا تحبّذ فتاة في الحادية عشرة من عمرها أن تكون محطّ الأنظار، خصوصاً لسببٍ من مثل أنّها مسلمة تعيش في منطقة مسيحيّة. لم تكن وفاء محجّبة أو أيّ شيء من ذلك: بل كانت في الظاهر «مثلنا»، لكنّنا كنّا نعلم أنّها ليست مثلنا حقاً، أيّ إنّها ليست «واحدة منّا». كنّا نتهامس

في ما بيننا «هي مسلمة»، كأنّنا نقول هي مجرمة. لا أظنّ أنّنا كنّا نعرف أصلاً مغزى كلمة مسلمة، سوى أنّها تعني غير مسيحيّة، ما زجّ بوفاء في خانة العدوّ في شكل أوتوماتيكيّ.

كانت وفاء تستلطفني. هي أخبرتْني بذلك. اقتربتْ منّي ذاتِ يومٍ وقالت: «هل تقبلين أن تكوني صديقتي؟». لكنّي، أنا، لم أكن أستلطف وفاء. بالأحرى، لم تكن ريتا، رئيسة فرقة الكشّافة وابنة عضو بارز في حزب الكتائب يومذاك، تستلطف وفاء. لم تكن ريتا تستلطفها، وتالياً لم يكن في مقدوري أنا أن أستلطفها. لم تكن ثمّة ضرورة للتفكير أو لاتّخاذ قرار، فريتا كانت تفكّر بالنيابة عنّي وتقرّر بالنيابة عنّي، وجلّ ما كان عليَّ فعله هو الامتثال.

لم يهمّنا يوماً أن نعرف من هي وفاء، تحت ماركة مسلمة الّتي كانت تحملها. لم يكن يهمّنا أنّها طيّبة ولطيفة وودودة. لم يكن يهمّنا أنّها كانت كشّافة مذهلة. لم يكن يهمّنا أنّها لم تحضُر يوماً اجتماعاتنا من دون أن تجلب معها حلويات لذيذة أعدّتها لنا أمّها؛ فأمّها كانت مسلمة مثلها، أي إنّ الحلويات كانت أيضاً مسلمة. ذلك لم يحل دون أن نلتهمها بلا خجل، ولكن من دون أن نشكر رفيقتنا، أو نلقي إليها بنظرة عرفان أو تقدير واحدة. كنّا نتجاهل وفاء، ندعها تجلس وحدها في إحدى زوايا الغرفة كأنّها وباء أو طاعون. ما زلتُ حتّى يومي هذا أعجب لقدرة الأُطفال الهائلة على القسوة واللؤم.

في نهاية المطاف، توقّفت وفاء عن حضور اجتماعاتنا الصباحيّة أيّام السبت. افتقدنا الحلويات اللذيذة، لكنّ ريتا اعتبرت غيابها نصراً ساحقاً وجماعيّاً لقوى الخير على قوى الشرّ، فاعتبرناه نصراً، نحن أيضاً، من دون جدال. لم تكن ثمّة ضرورة للتفكير أو لاتّخاذ قرار، فريتا كانت تفكّر بالنيابة عنّا وتقرّر بالنيابة عنّا، وجلّ ما كان علينا فعله هو الامتثال.

الحروب الكبرى لا تحصل من دون حروب صغرى في موازاتها، والثانية لا تقلّ بشاعةً عن الأولى.

***

غالباً ما يوصف الطفل الحديث الولادة بـ«الصفحة البيضاء»، لكنّه تشبيه خاطئ إلى أبعد الحدود: جميعنا نولد مع حقائب تثقل كاهلنا وتقوّس ظهورنا. أيّ صفحة بيضاء هي تلك، إن كانت تتضمّن مسبّقاً أسماءنا ودلالاتـها، جـذور عائلاتنا وماضيها، طبقاتنا الاجتماعيّة وسماتها، أوطاننا وتواريخها، طوائفنا وموجباتها، انتماءات أهلنا السياسيّة وعواقبها؟ كثرٌ لا يتكبّدون حتّى عناء إفراغ حقائبهم، فذلك يتطلّب قـدراً لا يُستهان به من العناء والأسئلة ومحاولات البحث والتقصّي المتعبة. كثرٌ يمضون في حيواتهم من دون أن يغيّروا أيّ شيء في تلك الصفحات الّتي ورثوها. «لـشو تعب القلب والراس؟». يخضعون للظروف الّتي شاءت المصادفات أن ينشأوا فيها، ويقنعون بما أُعطوا.

أنا أيضاً كنتُ هكذا، لردح من الزمن، إلى أن بتّ عاجزة عن حمل حقيبتي وجرجرتها خلفي، لشدّة ثقلها وضخامتها.

للعلم، لم أتخلَّ عن حقيبتي بين ليلة وضحاها. لم أبدأ بتوظيف قدراتي المنطقيّة وحسّي النقديّ على حين غـرّة. لم أستيقظ ذات صباح وأقرّر: «من الآن فصاعداً سأفكّر لنفسي وعن نفسي؛ سأتشكّك في الشاردة والواردة قبل أن أحسم أمري؛ سأختار ما أريده وما لا أريده، ما سأكونه وما أرفض أن أكونه، ما أقوله وما لا يمكن أن أوافق على قوله». لقد تطلّب الوصول إلى هذه المرحلة وقتاً هائلاً، ونضجاً تدريجيّاً. تطلّب قـراءات عديدة وكتّاباً مذهلين وسّعوا آفاقي. تطلّب أيضاً خسارات متتالية، والكثير من المقاومة والرفض والانسلاخ. وتطلّب، أكثر ما

تطلّب، ارتكابي أخطاءً فظيعة على مرّ الوقت: طويلاً حكمتُ على الآخرين انطلاقاً ممّا ألصقه بهم المجتمع والناس من تصنيفات. طويلاً صدّقتُ في شكل أوتوماتيكيّ بدل أن أشكّك أو أستخدم المنطق. طويلاً التحقتُ بعماء بدل أن أستعمل قدرتي على الاختيار. طويلاً وافقتُ على الفور بدل أن أسأل وأسائل وأصل إلى استنتاج. طويلاً فضّلتُ الانتماء إلى المجموعة بدل أن أجرؤ على الاختلاف. طويلاً صلّيتُ المسبحة لأنجح في امتحان ما، بدل أن أدرس. طويلاً كرهتُ أشخاصاً لمجرّد أنّ أمّي تكرههم، وقمتُ بأمور لا تقنعني لمجرّد أنّ إحدى صديقاتي قامت بها أو لأنّها قد تثير إعجاب أحد الشبّان، وتبعتُ غريزتي بدل عقلي، ونظّرتُ بدل أن أعمل، وانسقتُ بدل أن أمشي طريقي، و«اشتريتُ» بالجملة بدل المفرّق، وهكذا.

لا مفرّ من أن نعترف بالواقع: معظم ما يسهم في تربيتنا، معظم ما يحيط بنا ويؤثّر فينا ويقولبنا منذ الصغر، يثبط ميلنا إلى التفكير الفرديّ. هل يفكّر الإرهابيّون «الأولياء» قبل أن ينفّذوا مذابحهم دفاعاً عن إلههم؟ هل يفكّر الناخبون الأولياء قبل أن يدلوا بأصواتهم لزعيم فاسد؟ هل يفكّر الموظّفون الأولياء قبل أن يبيعوا منتجات مسمومة للمستهلكين؟ هل يفكّر الأبناء الراشدون «الأولياء» قبل أن يتبنّوا التقاليد البالية الّتي يعتبرها أهلهم مقدّسة؟

جرائم كثيرة تحصل يوميّاً باسم الولاء والإيمان وغيرهما من المفاهيم المماثلة، حدّ أنّني صرتُ أرتاب في أهمّيتها وفائدتها.

***

لقد ورثتُ حقيبة ضخمة، أجل، وما زلتُ أعمل على إفراغها وفرز محتوياتها. ما زلتُ أحاول التخلّص من الزوائد غير المجدية، من كلّ ما هو عبثيّ وعارض ومؤذٍ، من كلّ ما هو لا إنسانويّ. ما زلتُ

أدأب على محو الكلمات الموروثة، المحفورة حفراً، على تلك الصفحة البيضاء المزعومة، وأحاول استبدالها بكلماتي أنا. غالباً تبدو المهمّة مستحيلة: كيف لي أن أفرّق بين المُعطى والمُختار، بين المفروض والمنتقى، بين المتجذّر والمرغوب، بين المرغوب سابقاً والمرغوب اليوم؟ إنّها عمليّة لامتناهية ومضنية، وإغراء إجهاضها والاستسلام قويّ للغاية.

لكنّ وفاء هنا، معي. هي واقفة إلى جانبي، تراقبني بعينيها الحزينتين وقلبها الجريح، وتسألني بصوتها الناعم الخَفِر: «هل تقبلين أن تكوني صديقتي؟».

لا تقلقي يا وفاء، لن أستسلم قبل أن أستحقَّ صداقتكِ.

المَقصِد
متاهة

«واذكرْ أنّكَ أنّى ذهبتَ، فأنتَ في الأصل هناك.»
كونفوشيوس

العالم الإنسانويّ متاهةٌ.

لم تختاري أن تدخليها بنفسكِ، بل قُذِفتِ إليها قذفاً. استيقظتِ ذات صباح، فوجدتِ نفسكِ فيها.

***

المتاهة، بطبيعتها، مكانٌ مثير للاستغراب. تنظرين حولكِ بشيء من الذهول والدهشة، فيحضر سؤالكِ الوجوديّ الأوّل: «مَن، ماذا تراه أوجدها؟».

أسلافكِ منقسمون قسمين: منهم مَن يعيدها إلى «الله العليّ العظيم»، ومنهم مَن يقول بنظريّة الانفجار الكبير. هم محتارون بين نظريّة الخلق ونظريّة الفيزياء، بين الإيمان والعلم. ثمّة فئة ثالثة، قليلة العدد، تحاول التوفيق بين الطرحَين.

تبدو لكِ الفرضيّتان معقولَتين إلى حدّ ما، لكن ليست أيّ منهما معقولة بما فيه الكفاية. شيءٌ ما ينقص في الاثنتين.

عاجلاً أو آجلاً تكفّين عن طرح هذا السؤال. تتبنّين النظريّة الّتي تلائمكِ أكثر وتكملين طريقكِ. ترين في المسألة بعداً يتخطّاكِ، تعقيداً لا ضرورة له، فلِمَ البحث في ما يُعجِزكِ؟

عيناكِ الضبابيّتان تهمسان لكِ: «لا تتعبي نفسكِ يا عزيزتي، احذي حذو الآخرين».

***

المتاهة، أيضاً، مكانٌ غامض. وسرّ وصولكِ إليها لغزٌ آخر، معضلة وجوديّة جديدة. تتساءلين: «مَن، ماذا جاء بي إلى هنا؟»».

عندما تبلغين الخامسة من العمر، يجيبكِ والداكِ التقيّان: هي مشيئة الله.

في الثانية عشرة يجيبكِ أستاذ العلوم: هي قوانين البيولوجيا.

في الثامنة عشرة يجيبكِ كتاب الفلسفة الّذي استعرتِه من صديق: هي محض مصادفة.

في الأربعين يجيبكِ معلّمكِ الصوفيّ: هي طاقة الكون.

تبدو لكِ الإجابات كلّها ممكنة. لكن ليست أيٌّ منها ممكنة بما فيه الكفاية. شيءٌ ما ينقصها.

عاجلاً أو آجلاً تكفّين عن طرح هذا السؤال. تتبنّين النظريّة الّتي تلائمكِ أكثر وتكملين طريقكَ. ترين في المسألة بعداً يتخطّاكِ، تعقيداً لا ضرورة له، فلِمَ البحث في ما يُعجِزكِ؟

قدماكِ الكسولتان تهمسان لكِ: «لا تمشي يا عزيزتي. ازحفي».

***

المتاهة، أيضاً، مكانٌ مُربِك. تدركين عبثيّة وجودكِ فيها، فيطرأ سؤالكِ الوجوديّ الثالث: «لِمَ أنا هنا؟».

تتهافت عليكِ الإجابات والمقترحات مع تقدّمكِ في العمر: «لتستحقّي الحياة الأبديّة. لتكفّري عن أخطاء حياتكِ السابقة. لتجعلي هذا العالم مكاناً أفضل. لتستمتعي بالدنيا. لتعيشي. لتموتي. لتحلمي. لتتألّقي. لتعشقي. لتتألّمي». وأيضاً: «إنّها أضحوكة يا حمقاء! إنّه امتحان. إنّه وهم». ثمّ جواب العدميّين: «أنتِ هنا بلا سبب».

تبدو لكِ الاقتراحات كلّها مُرضية، لكن ليست أيٌّ منها مُرضية بما فيه الكفاية. شيءٌ ما ينقصها.

عاجلاً أو آجلاً تكفّين عن طرح هذا السؤال. تتبنّين النظريّة الّتي تلائمكِ أكثر وتكملين طريقكِ. ترين في المسألة بعداً يتخطّاكِ، تعقيداً لا ضرورة له، فلِمَ البحث في ما يُعجِزكِ؟

يداكِ المتراخيتان تهمسان لكِ: «لا تبحثي يا عزيزتي. لا تحاولي انتزاع شيء. انتظري حتى تسقط التفّاحة من تلقاء نفسها. لقد نجح الأمر مع صديقنا نيوتن، أليس كذلك؟».

***

المتاهة، أيضاً، مكان مُقلق وغير مريح. ما إن تعين ذلك حتى يراودكِ سؤال رابع: «كيف عساني أخرج من هنا؟».

تمرّ بكِ زمرة من الناس، في مقدّمهم شخصٌ يقودهم ويعِدهم بالخلاص. «اتبعوني»، يقول لهم، «سأريكم الطريق». يبدو لكِ مدركاً خفايا الأمور وسرّ الخروج من المتاهة. فتتبعينه. تتبعينهم.

ولكن سرعان ما تكتشفين أنّكِ تسيرين في حلقات مفرغة، ولا تقتربين البتّة من المخرج. تلمحين سراباً سبقتُ لكِ رؤيته، ترين نفسكِ تقعين في الفخاخ نفسها وتعيدين ارتكاب أخطاء الماضي.

لكنّكِ تخافين ترك القطيع. تبقين معهم، فأن تضيعوا معاً خيرٌ من أن تظلّي بمفردكِ.

ثمّ تلمحين من بعيد حشداً آخر من الناس. يبدو لكِ قائدهم أكثر إقناعاً، حتّى إنّه يحمل بيده بوصلة. تسمعينه يتحدّث بالأرقام والدرجات والاتّجاهات. تسمعينه يقول كلمات كبيرة، معقّدة. تفكّرين في سرّكِ: «هذا هو القائد الحقّ الّذي يستحقّ ثقتي وولائي». تتركين القطيع الأوّل وتنخرطين في الثاني.

إلّا أنّ الحلقات المفرغة تظهر من جديد، وتثير في نفسكِ الخيبة واليأس، كمثل حركة مدّ وجزر تغرقكِ في أمواجٍ من الغبار والرماد. تروحين تلطمين رأسكِ بإحباط، تركعين على ركبتيكِ متهالكةً، تبكين، تصرخين بأعلى صوتكِ: «أريد الخروج من هنا!». يأتيكِ صوتٌ من حيث لا تدرين، صوتٌ حكيم مطمئن، صوتٌ واثق متمكّن من زمامه. يقول لكِ: «تعالي معي». تفكّرين: «وأخيراً!».

ولكن، مجدّداً، بلا جدوى.

عاجلاً أو آجلاً، تكفّين عن البحث عن منفذ. قلبكِ الحذر يهمس لكِ: «قد يكون الحلّ الأصوب أن تراوحي مكانكِ».

***

تراوحين مكانكِ إذاً.

تجدين لنفسكِ بقعة جميلة في المتاهة وتفرشينها بكلّ حاجاتكِ الجسديّة والعاطفيّة. تحيطين نفسكِ بأُناس يشبهونكِ ويشدّون من عزيمتكِ ويخفّفون شيئاً من قلقكِ. تدهنين السقف بطلاء أزرق لتوهمي ذاتكِ بأنّ فوقكِ سماءً مفتوحة. ترسمين باباً على أحد الجدران وتقنعين نفسكِ بأنّ المقبض موجود، لكنّكِ أنتِ مَن لا تريد الخروج.

تتركين للأمور أن تأخذ مجراها. تعيشين اللحظة. تكفّين عن جَلد نفسكِ. تقرّرين أنّ اللامبالاة نعمة والوعي نقمة. تقومين بما يقوم به الجميع. تقولين ما يقوله الجميع. تؤمنين بما يؤمن به الجميع. تفكّرين كما يفكّر الجميع. تأكلين، تلبسين، تحبّين ما يأكله ويلبسه ويحبّه الجميع. ألم يترك آخرون وراءهم آثاراً؟ لِمَ تكبّدين نفسكِ مشقّة البحث عن طريقكِ الخاصّة؟ ثمّ إنّ الأسئلة الوجوديّة ترفٌ لا تستطيعين تحمّل أثمانه، فلديكِ مسائل أخرى يجب أن تصبّي اهتمامكِ عليها، كمثل تأمين حاجات عائلتكِ والتقدّم في عملكِ ومحاولة اقتناء تلك السيارة الفخمة الّتي تعجبكِ...

تُذعنين إذاً. تستقيلين من عقلكِ.

***

لكن ليس تماماً.

تشكّين في وجود عصفور بديع، مخدّر ومسجون داخل رأسكِ. عصفور بديع اسمه الوعي، فتُلقين اللوم على المتاهة: «كم أكره هذا العالم التافه!».

أنتِ على حقّ. هناك فعلاً عصفورٌ بديع مخدّر داخل رأسكِ. لكن ليس الخطأ خطأ المتاهة، إنّه خطؤكِ أنتِ. أنتِ الّتي طويلاً أعطيتِه حبوباً منوّمة، حتى انتهى إلى ما هو عليه من همود وخمول.

أنتِ على حقّ. هناك فعلاً عصفور بديع مسجون داخل رأسكِ. لكن ليس الخطأ خطأ المتاهة، إنّه خطؤكِ أنتِ. أنتِ الّتي وضعتِه خلف القضبان وأحكمتِ إغلاق الأقفال: أقفالٌ مصنوعة من جبنكِ، وتراخيكِ، ونكرانكِ، واستسلامكِ، وسذاجتكِ.

تروحين تدركين شيئاً فشيئاً أنّ الحياة بلا هذا العصفور إنّما هي بلا معنى؛ حياة تنقصها الموسيقى والوعود والآفاق والاحتمالات

المفتوحة. تحاولين بعث عصفوركِ إلى الحياة من جديد. يتطلّب منكِ الأمر مجهوداً جمّاً، إلى أن تنجحي في النهاية. تحرّرينه من حبسه، تطلقينه ليغنّي ويصفّق بجناحيه. وفي اللحظة الّتي ترينه فيها يحلّق عالياً نحو السقف الأزرق الّذي صار سماءً بحقّ، تسمعينه يهمس لكِ: «لستِ في حاجة إلى أن تسألي الآخرين مَن أو ماذا خلق العالم؛ مَن أو ماذا أوجدكِ فيه، ولِمَ أنتِ هنا. لستِ في حاجة إلى الخروج من المتاهة. أنتِ في حاجة فقط إلى أن تستكشفيها. بنفسكِ. وأن تخترعي إجاباتكِ الخاصّة عن كلّ الأسئلة.

المتاهة حلمكِ وحقيقتكِ في آن واحد. فماذا تنتظرين يا عزيزتي؟ اخلقيها!

المُحاوَرة
لِمَ التفكير؟

«عقول الدرجة الثالثة لا تشعر بالرضى إلّا عندما تفكّر كالأكثريّة.
عقول الدرجة الثانية لا تشعر بالرضى إلّا عندما تفكّر كالأقليّة.
عقول الدرجة الأولى لا تشعر بالرضى إلّا عندما تفكّر.»

آلان أ. ميلن

أنا: لماذا توعز إليّ دائماً بالالتحاق؟

الوسواس: لِمَ لا؟ الطريق مرسومة!

– لكنّها ليست طريقي.

– ما همّ؟ قد تناسبكِ في كلّ حال. ستوفّر عليكِ وقتاً ثميناً بدلاً من البدء من جديد في كلّ مرّة. لا بدّ من الاعتراف بما سبق، للتأسيس عليه والتقدُّم.

– أنتَ محقّ، ولكن قبل الاعتراف بما سبق، يجدر بنا إعادة النظر فيه وفي السياق الّذي تأسّس عليه: هل هذا السياق منطقيّ أم

لا؟ من غير المقبول أن نخلط بين المعرفة والخرافة، أو بين التجارب والتقاليد. يمكننا أن نبني تقدّمنا على أساس اكتشافاتٍ علميّة مثلاً، أو وقائع مختَبَرة، ولكن ليس على أساس أساطير وميثولوجيات وأحكام مسبّقة، حتى لو كان أسلافنا يؤمنون بها وأسهموا في ترسيخها.

– ما تعتبرينه أنتِ أساطير قد يكون بالنسبة إلى غيرك معتقداً مقدّساً.

– مقدّساً كان أو غير مقدّس، من واجبنا إعادة تقويم كلّ ما وُجد على أساس وهم أو تحيّز سلطويّ أو دوغما أو مغالطة.

– ولكن لا يمكنكِ أن تهدمي كلّ شيء بهذه البساطة!

– لا أعني الهدم بالضرورة. أحياناً كلّ ما يحتاج إليه تقليدٌ ما هو شيءٌ من التجديد أو إعادة موضعة في الزمن الراهن. فلنأخذ الدين على سبيل المثل: إنّه حاجة إنسانيّة مفهومة، بسبب خوف البشر من الموت والمجهول، لكن على المؤمنين في المقابل أن يعيدوا النظر في بعض معتقداتهم وقيمهم وطقوسهم، وتحديثها، خصوصاً تلك الّتي أصبحت غير منسجمة مع العصر أو منافية للمنطق أو متعارضة مع الاكتشافات العلميّة الّتي تلت نشوءها.

– الأديان لا تُحَدَّث! ليست برنامج كمبيوتر!

– أرأيت! هنا تكمن المشكلة. لا في الإيمان في ذاته، بل في مقاومة طبيعة هذا الإيمان لكلّ تغيير أو تقدّم. إنّ هذا الجمود بحجّة القدسيّة هو العدوّ الأوّل والأخطر للدين.

– لنفترض أنّكِ على صواب: من يستطيع تحديث الأديان؟ حتماً، الناس العاديّون لا يستطيعون. يعوزهم النفوذ والصدقيّة وهالة التبجيل. نحتاج والحال هذه إلى نبيّ جديد.

– لا. ليس لنا أن ننتظر الحلّ من السماء هذه المرّة. الإنسان هو مَن كتب النصوص والوصايا الدينيّة، والإنسان نفسه يستطيع

تحديثها اليوم. ثمّة عدد كبير من السلطات الدينيّة المعترف بها الّتي تستطيع القيام بذلك. طبعاً إنْ هي أرادت ذلك...

– ماذا تقصدين؟

– أقصد أنه سيترتّب على هذه السلطات التخلّي عن شيء من نفوذها المطلق، وعن ثرواتها المادّية أيضاً، بغية تحقيق هذا الأمر، وأهل القلنسوات والعمائم ومثيلاتها لن يحبّذوا ذلك بالضرورة. أيّام التواضع والتجوال بالصنادل ولّت.

– أنتِ تنادين بالانقلاب والشكّ.

– الانقلاب على الظلم شجاعة، أمّا الشك، فدليل صحّة وعافية، عافية العقل والنفس، دواء يقي من المناورين والدجّالين. أنا أنادي فقط بوضع علامة استفهام على كلّ ما هو غير متماسك ولا براهين عليه.

– وما تعريفكِ للبراهين؟

– ثمرة المعرفة.

– ولكن لا يمكنكِ أن تنكري وجود الكثير من الأمور الغامضة في عالمنا اليوم على الرغم من المعرفة الّتي تشيدين بها.

– صحيح، لا يزال الغموض يلفّ أموراً كثيرة. لكنّ السبب لا يعود في رأيي إلى وجود قوىً خارقة في الكون، بل لعدم قدرتنا على فهم كنه تلك الأمور بعد. أنا على يقين من أنّ المستقبل سيكشف الكثير ممّا نجهله اليوم ويثير حيرتنا. المسألة تتعلّق بتطوّر العقل البشريّ وتقدّمه ونموّه. على سبيل المثل، إنّ المطر نفسه كان يُعدُّ منذ آلاف السنين لغزاً، وهبةً من «قوّة خارقة» ما. مثله أشعّة الشمس. ثمّ جاء العلم ومنح تفسيراً لهذه الظواهر الطبيعيّة.

– هل يمكنكِ أن تثبتي عدم وجود قوىً خارقة؟

– لا أدّعي أنّ باستطاعتي أن أثبت أمراً كهذا، لكنّ عاتق الإثبات هنا لا يقع عليَّ بل على أولئك الّذين يؤمنون بها. كأنّكَ تطلب منّي أن

أجد الدليل القاطع على عدم وجود فيل زهريّ اللون. هناك أشخاص يؤمنون بوجوده على الرغم من أنّهم لم يروه يوماً. أنا، من ناحيتي، لا أؤمن بوجوده، لكن ليست مسؤوليّتي أن أثبت ذلك، بل هي مسؤوليّة مَن يزعمون وجوده، أن يبرهنوا زعمهم هذا.

– حتّى لو فاق عددُ المؤمنين بوجود هذا الفيل عدد اللامؤمنين؟

– العدد لا يحدّد الصدقيّة. الأكثريّة غالباً ما تكون غادرة ومضلّلة، ومثلها الأقليّات أحياناً باسم الاختلاف المفتَعل.

– لكنّ ميزة الدين وقوّته تقومان على سرّ التسليم بواسطة الإيمان لا البرهان.

– بل قوّة الدين قائمة على الحاجة النفسيّة إليه كأداة عزاء وطمأنة، وغالباً ما يتّكل الزعماء الدينيّون على هذه الحاجة للسيطرة على عقول الناس وقولبتهم. على كلٍّ، لقد ضربتُ الدين مثلاً، ولكن ثمّة أمثلة أخرى كثيرة على اختراعات ومفاهيم تؤطّر حياتنا، وتتطلّب مساءلتنا، في مجال السياسة والاقتصاد، وحتى العِلم. هل تعلم كم من الإحصاءات والدراسات تُزيَّف لغرض بيع دواء معيّن أو منتجٍ ما؟ الغشّ يزدهر في الحقول كلّها، وهذا بالتحديد ما يجعل التفكير وإعادة النظر والمساءلة والشكّ مزايا أساسيّة، لأنّ التسليم بكلام الآخرين هو ضربٌ من ضروب الانتحار الفكريّ.

– نعم، ولكن من الواضح أنّ لديكِ موقفاً معارضاً للأديان في شكل رئيسيّ.

– قد يكون كلامكَ صحيحاً. قد أكون ضدّ الأديان، لكنّي لستُ ضدّ المؤمنين؛ إلّا متى بدأوا يقطعون الرؤوس باسم إلههم، أو يهينون المثليّين، أو يقرّرون عنّي ما يمكن أو لا يمكن أن أفعله بجسدي، أو يسفكون أرواح النساء باسم الشرف، أو يتزوّجون بقاصر، أو يرفضون

منح المرأة سرّ الكهنوت بحجّة أنّها ليست أهلاً لتملّك سلطة على الرجل... يمكنني أن أتابع إلى ما لا نهاية، لكن أظنّكَ فهمتَ المغزى من كلامي.

– نعم فهمتُ. أنتِ لا ترين إلّا النصف الفارغ من الكأس، وحكمكِ هذا ليس موضوعيّاً.

– وهل أولئك الّذين لا يرون إلّا النصف الملآن موضوعيّون؟

– فلنقلْ إنّنا ننظر إلى العالم من منظارَين مختلفَين: منظاري روحانيّ ومنظاركِ علميّ.

– ومَن أخبركَ أنّني لست روحانيّة؟! قد تُفاجأ يا صديقي، لكنّ روحانيّتي ليست قائمة على أساطير. روحانيّتي ليست عمياء وعدوانيّة. روحانيّتي لا تحتاج إلى الكنائس والجوامع والصلوات الخمس وإشارة الصليب. روحانيّتي هي إنسانويّتي، توقي لأن أكون إنسانةً أفضل ممّا أنا عليه اليوم، اتّحادي مع الطبيعة، مخيّلتي والعالم السحريّ الّذي تخلقه لي، شهوتي وآلاف الطرق الّتي أُشبعها بها. روحانيّتي تهمس لي أنّني قادرة على خلق أسطورتي بنفسي، وأنّني أنا القوّة الخارقة الوحيدة الّتي أحتاج إليها. الأهمّ من ذلك كلّه، أنّ روحانيّتي ليست ثابتة وهامدة ومتشنّجة، ليست عازلة لنفسها. روحانيّتي يا صديقي تتنشّق الهواء ملء رئتيها.

– هذه ليست مراجع.

– على العكس تماماً. أخلاقيّاتنا الإنسانويّة هي المراجع الوحيدة: الطيبة والكرم والأمانة والصدق والعدل والتسامح والتضامن والاحترام...

– لا يسعني إلّا أن أطرح عليكِ هذا السؤال: أتراكِ تؤثرين العقل وتختارينه خوفاً من المجهول؟

– بل أؤثر العقل وأختاره لأنّه يشكّل نوعاً من التحدّي لي، لأنّه يرويني. أمّا المجهول بالنسبة إليّ فليس مطلقاً، بل هو فقط ما لم يُكشَف سرّه بعد.

– وماذا عن الروح؟

– ما تسمّيه الأديان روحاً هو وعينا، وعينا المتراكم فرديّاً وجماعيّاً، الناتج هو الآخر من قدرتنا على التفكير والتطوّر.

– وماذا عن آلاف الأسئلة والأسئلة الّتي لا إجابة عنها حتى اليوم؟

– الأجوبة ثانوية: المهمّ ألّا نكفّ عن البحث وإعادة النظر.

– أليس في هذا شيء من الغدر؟ طعن في الظهر لما نعرفه ونؤمن به؟

– إنْ كان الغدر مرادفاً للتحرّر من الأوهام فأهلاً وسهلاً ومرحباً به. بل قلْ إنّ الغدر واجبٌ في هذه الحال، واجبٌ وحقٌّ أيضاً. يحقّ لنا كلّ يوم أن نغيّر آراءنا، أن نتحدّاها ونحدّثها ونبتكرها ونبعثها من جديد. هذا يعني بكلّ بساطة أنّنا نتفاعل مع نبض العالم الّذي نعيش فيه.

– أتظنّين أنّكِ قد تغيّرين رأيكِ يوماً في مسألة الأديان؟

– صدقاً، أشكّ عظيم الشكّ في ذلك، فأنا قد استنفدتُ الاحتمالات كلّها قبل أن أتحوّل عن الأديان. كثرٌ لم يمارسوا تمرين الشكّ الجوهري هذا، ربّما لأنّهم لم يعرفوا بوجود احتمالات أخرى، أو ربّما خوفاً من الاحتمالات الأخرى، خوفاً من رفض المجتمع لهم، خوفاً من الخطر المحدِق بحياتهم إنْ تراجعوا عن الخيارات الّتي اتُّخِذَت بالنيابة عنهم. لكنّ ما أنا واثقة منه، أنّني لن أكفّ يوماً عن طرح هذه الأسئلة المؤرقة والمرهقة. ففي كلّ يومٍ وفي كلّ دقيقة يمكن أن نعيد صقل شخصيّتنا، يمكن أن نعيد خلق قَدرنا، إمّا بمواصلة اعتماد

معتقداتنا السابقة وقراراتنا الناجمة عنها، وإمّا بالتعارض معها واعتماد أخرى مختلفة عنها. لا بأس بالسير على خطى الآخرين، شرط أن ينجم ذلك عن تفكير ومساءلة واختيار مُتَّخذ بثقة واقتناع.

– كفّي عن الكلام أرجوكِ! أنتِ تربكينني.

– أنا سعيدة لسماع هذا يا صديقي، فهو يعني أنّنا، أنتَ وأنا، لا نزال على قيد الحياة.

وصيّة أفلاطون
أن تَرِثي أو أن تعثري

ليس هناك جوابٌ واحد.
ليس هناك جوابٌ مطلق.
ليس هناك جوابٌ صحيح.

هناك جوابكِ أنتِ،
وأجوبة الآخرين.

رحلة المُنصِت

(هو المستمعُ النبيهُ الواسعُ العقل ظمآنُه)

«بئسَ مُستكشف يظنّ أن لا أرض، فقط لأنّه
لا يرى أمامه سوى البحر.»

فرنسيس بايكون

القصّة

أوّل حبّتَي رمل في حياتي

«إنه لأمرٌ خطير، يا فرودو، أن تخرج من باب
بيتكَ. إذ تخطو خطوتكَ الأولى على الطريق،
لا أحد يعرف إلى أين ستُستدرَج.»
ج. ر. ر. تولكين

قبل أن أصير أمّاً، كنتُ صمّاء.

كنتُ «أسمع»، لكنّي لم أكن «أصغي». كنتُ أعزو ذلك إلى كوني إنسانة صلبة، متماسكة، تعرف تماماً ما تريد. كنتُ أرى في ذلك قوّةً وعزماً وحكمة. كنتُ أختار أجمل الكلمات لأصف ما أنا عليه، فأتبجّح بحرصي وتنبّهي، وأشيد بقدرتي على حماية نفسي من الآخرين «الفاسدين المفسدين». جملتي المفضّلة كانت: «تستطيع الريح أن تلامس بشرتي، لكنّها لا تستطيع اختراقها». كنتُ قوقعة لا تتيح لأحد أو لشيء فرصة ولوجها. أليس اسمي جمانة؟ الجمانة بالفارسيّة تعني اللؤلؤة: وأين تتكوّن اللآلئ، سوى داخل الأصداف المتينة، المقفلة على نفسها؟ كنتُ، في نظري، اسماً على مسمّى.

***

كنتُ داخل صَدَفَتي إذاً، صمّاء منْ دون أن أدري. لم أكن أستطيع – ولا كنتُ أريد – أن أسمع ما يقوله الآخرون. لم تكن تتناهى إليَّ الموسيقى البهيّة الّتي كان العالم يعزفها من أجلي. كنتُ صمّاء أجل، لكنّ قوقعتي كانت مجوّفة، فارغة: لم يكن يسكنها أحدٌ سواي.

ثمّ حدث أجمل ما يمكن أن يتخيّله عقلٌ بشريّ. كنت بالكاد قد بلغتُ العشرين من عمري عندما بدأ كائن صغير ينمو في داخلي، كائن صغير راح يشاركني مساحتي الأكثر حميمية. كائن صغير حيّ تغلغل إلى صدَفَتي، مكث فيها طوال تسعة أشهر، ثمّ خرج من بعدها مبتسماً قائلاً: «مرحباً. اسمي منير، وأنا ابنكِ. تشرّفتُ بمعرفتكِ!».

أنا أيضاً تشرّفتُ بمعرفتكَ، حبيبي منير. لا تقلق يا صغيري، سأعتني بكَ خير اعتناء. لن تحتاج إلى الكلمات معي، فأنا سأفهم ابتساماتكَ ودموعكَ ومشاعركَ وحاجاتكَ من دون أن تقول شيئاً. سأطعمكَ متى جِعتَ وأغطّيكَ متى بردتَ وأنظّفكَ متى اتّسختَ وأهدهدكَ بحنان لتغفو وأداويكَ إذا أصابكَ مغصٌ. لا تحمل أيّ همّ يا حياتي. أنا هنا...

لكنّ منير تعلّم الكلام، على غرار غالبيّة الأطفال. تعلّمه منّي ومن العالم ومن نفسه. تعلّم صغيري الكلام، وبدأ يقول جملاً من مثل: «لستُ جائعاً الآن. لا أحتاج إلى غطاء. ألا يمكنكِ تنظيفي لاحقاً؟ سأخلد إلى النوم متى شئتُ. لا أرغب في شرب اليانسون».

لكنّني لم أكن أُنصِت. فأنا أمّه؛ لقد وُجد داخلي، ونما في أحشائي، أي إنّه امتدادٌ لي. أنا وحدي أعرف تماماً ماذا يحبّ، أعرف تماماً إلامَ يحتاج وكيف ومتى يحتاج إليه. أعرف تماماً مَن هو وماذا سيكون لاحقاً. كنتُ أعرف ذلك كلّه وأشعر بالفخر مسبقاً. ما لم أكن أعرفه هو أنّني كنتُ فخورة بنفسي، لا به، بوجهي الّذي كنتُ أراه في وجهه، بصورتي الّتي كنتُ أراها منعكسة في مرآته.

سوف يعشق القراءة، مثلي تماماً. سوف يحبّ الطعام الصينيّ، مثلي تماماً. سوف يولع بموسيقى الجاز، مثلي تماماً. سوف يكره اللون البنّيّ، مثلي تماماً. سوف يدعني أصفّف له شعره، وأختار عنه هواياته، وأنتقي له أصدقاءه.

لكنّ منير راح يقول جملاً أخرى، من مثل: «لا تهمّني الكتب بقدر ما تهمّكِ. أكره الطعام الصينيّ. أنا مولع بالموسيقى الإلكترونيّة. لن أرتدي هذا القميص الأحمر الّذي اخترتِهِ لي. أفضّل قصّة الشعر هذه. أريد أن أمارس رياضة كرة السلّة لا أن أتعلّم العزف على البيانو. سأبقى على صداقاتي وإن كنتِ لا توافقين عليها».

كان الأمر مزعجاً، ومنهكاً، ومثيراً للسخط. وكان، خصوصاً، مرعباً. هذا الكائن الصغير الّذي خلقتُه أنا، الّذي تنفّس وعاش بفضلي، ومن خلالي، أخذ على ما يبدو يفكّر عن نفسه ولنفسه! أخذ يفكّر ويختار ويقرّر، وغالباً ما كانت أفكاره وخياراته وقراراته مختلفة عن أفكاري وخياراتي وقراراتي. كيف يُعقل ذلك؟!

لكنّي بقيتُ على صممي: «سوف ينال علامات متفوّقة، مثلي تماماً. سيصير كاتباً، مثلي تماماً. سيتوقّف عن حضور القدّاس، مثلي تماماً».

ولكن، عبثاً. ظلّ منير يقول أشياء تناقض توقّعاتي: «علاماتي لا تحدّد نجاحي. أريد أن أصير محامياً. سأستمرّ في الذهاب إلى الكنيسة. أنا مختلفٌ عنكِ. أنا مختلف. أنا».

كيف يجرؤ؟! مَن يخال نفسه ليحدّثني بهذه الطريقة؟!

في البداية تجاهلتُ، ثمّ هاجمتُ، ثمّ شعرتُ بالخيانة، ثمّ تألّمتُ، ثمّ رحتُ أتساءل: أين تراني أخطأتُ؟ هل السبب أنّني أنجبتهُ وأنا بعد في سنٍّ صغيرة، وغير مستعدّة للأمومة؟ هل تراني أمّاً سيّئة؟ ظللتُ أسأل وأسأل، إلى أن فجأةً، في آخر المطاف، أنصتُّ.

أنصتُّ، فتغيّر كلّ شيء.

***

كثرٌ يظنّون التربية سهماً أحاديّ الاتّجاه، يتّجه حصراً من الوالدين إلى الأولاد، من القديم إلى الجديد، من السلف إلى الخلف. لكنّني تعلّمتُ، أنا الأمّ، الكثير من ولديَّ منير وشقيقه الأصغر أنسي. لقد ربّياني وثقّفاني بقدر ما ربّيتهما وثقّفتهما.

من بين المعجزات العديدة الّتي اجترحها ولداي فيَّ، أنّني شُفيتُ من الصمم الّذي كنتُ أعانيه. بفضلهما تعلّمتُ أن أتقبّل الآراء المختلفة، الأذواق المختلفة، وجهات النظر المختلفة، الخيارات المختلفة، الشخصيّات المختلفة، والحضارات المختلفة. بفضلهما تعلّمتُ أن أتلقّى، أن أفتح ذراعيّ، أن أطلِق عقلي نحو آفاق أخرى. بفضلهما تعلّمتُ أن أكون فضوليّة، أن أبحث وأطرح الأسئلة، أن أكون ليّنة، طيّعة، مشرّعة على الحياة والناس. بفضلهما تعلّمتُ ألّا أشعر بالتهديد ممّا أو مِمّن هو مختلف عنّي، لا بل بالعكس أن أغتني به. وقد تعلّمتُ ذلك كلّه عبر التعرّف إليهما وتأمّلهما والإصغاء إلى ما يقولانه.

حقّاً، قد غيّرني الإصغاء إلى ولديَّ تغييراً جذريّاً على مرّ السنين: غيّر طريقة تفكيري، طريقة كتابتي، طريقة تفاعلي مع الناس، طريقة سفري، طريقة عيشي، طريقة حبّي، طريقة اختياري لأصدقائي، طريقة نظرتي الى نفسي. حرّرني فعل الإصغاء من عنادي، من تعنّتي، من تشبّثي السطحيّ بآرائي؛ حرّرني من حياة سابقة احترفتُ فيها التجاهل والهرب والاجتناب والنكران والرفض وإغماض عينيّ عمّا لا يناسبني.

بفضل منير وأنسي، اكتشفتُ كم أنّنا نحن البشر مختلفون ومتعدّدون. اكتشفتُ أنّ معرفة الآخرين غير ممكنة إلّا إذا خرجنا من

ذواتنا إليهم، من قوقعتنا إلى العالم، من ملجئنا الدافئ إلى الريح، ومن حصوننا المعتمة إلى الضوء الأعزل. اكتشفتُ أيضاً أنّ الإصغاء لا يعني بالضرورة أن نتأثّر ونتغيّر ونتحوّل عمّا كنّا عليه، وأنّه لا يهدف إلى زعزعة معتقداتنا واقتناعاتنا. لا بل إنّ الإصغاء قد يرسّخ آراءنا ويبيّن لنا مدى صلابتها وعمقها. أمّا إذا زعزعها، فذلك يعني أنّها لم تكن راسخة أصلاً، وأنّه يجدر بنا إعادة النظر فيها. ليس بالانعزال والانغلاق والصمم يحمي المرء قيمه ومبادئه. فكما يُختبرُ الذهبُ بالنار، هكذا تُختبر الاقتناعات بتعريضها لنيران الآخرين ومساءلتهم. الإنصات يمكنه أن يكرّس مبادئنا، أو أن يدمّرها، أو أن يشير بكلّ بساطة إلى وجود ما هو مختلف، وأن يعلّمنا قبوله واحترامه.

***

في فترةٍ لاحقة من حياتي، عرفتُ الطريقة الحقيقية الّتي تتكوّن بها اللؤلؤة داخل الصدَفة: يبدأ الأمر عندما يدخل الصدَفة جسمٌ غريب، على غرار حبّة رملٍ مثلاً. يولّد الاحتكاك بين الصدَفة والجسم الغريب التهاباً، فتتجمّع الخلايا الجريحة في ما يشبه الكيس، وتروح الصدَفة تفرز موادّ خاصّة داخل الكيس لتشفي الالتهاب. عمليّة الإفراز المتكرّرة هذه تحوّل الكيس إلى ما يُعرف باللؤلؤة.

كان منير وأنسي أوّل حبّتَي رمل في حياتي، تلتهما حبّات لا تحصى، أنعم بها الكون عليَّ. أنا بدوري كنتُ أوّل حبّة رملٍ دخلَت صَدَفتيهما. فأنا لم أكن أمّاً «سهلة»، وكلّ شيء تقريباً في حياتي وأفكاري وكتاباتي وسلوكي وطريقة تربيتي لهما، كان يتحدّى العالم التقليديّ الّذي يريانه ويختبرانه خارج جدران بيتنا. لكنّهما أصغيا

إليَّ، واحترما اختلافي، وراهنا عليَّ. وسأبقى ممتنّة لهما مدى عمري على ذلك، وسواه.

***

على فكرة، أصبح منير بالفعل محامياً، لا كاتباً. ولن تجدوا أمّاً، في العالم أجمع، أكثر فخراً منّي.

المَقصد

كتاب

«لا أعرف إن كانت النجوم تحكم العالم
أو إذا كان التبصير أو لعب الورق
يمكنهما أن يكشفا شيئاً.
لكنّي أيضاً لا أعرف
إذا كان يمكن الوصول إلى أيّ حقيقة
بالعيش مثلما الغالبية تعيش.»

فرناندو بيسوا

العالم الإنسانوي كتابٌ.

واحـدٌ من تلك الكتب الصعبة، الّتي تبدو قراءتها متعسّرة للوهلة الأولى.

في أحد الأيـام، ترفعين ذراعـكِ نحو ذلك الـرفّ العالي حيث الكتاب جالسٌ ينتظركِ، تمدّين يدكِ وتأخذينه. تمسحين الغبار عن غلافه بأصابعكِ، تروحين تقلّبين صفحاته الصفراء العتيقة، وتشمّين رائحة السنين العالقة فيها. تقرئين شذرات من هنا وهناك، لكنّكِ لا تفهمين منها شيئاً، أو لعلكِ تقرّرين أنّكِ لا تريدين أن تفهمي شيئاً.

تفكّرين في سرّكِ: «يا له من كتاب مملّ!». الصفة الصحيحة هي مخيف؛ «يا له من كتاب مخيف!»، لكنّكِ لا ترغبين في الاعتراف بذلك. فتعيدين الكتاب إلى مكانه، على الرفّ العالي نفسه، وتكملين بحثكِ عن كتاب أسهل، أكثر خفّةً وإمتاعاً؛ كتاب مريح، من شأنه أن يعزّي أوهامكِ أو حالة النكران الّتي تعيشينها؛ كتاب يطمئن بالكِ إلى أنّكِ تعرفين كلّ شيء تقريباً، وأنّ الأشياء الّتي لا تعرفينها إنّما هي غير ذات أهمّية؛ كتاب يخبركِ أنّكِ على حقّ، ويربّت كتفكِ بمودّة ولطف؛ كتاب يثبّت معتقداتكِ ويهدهد غروركِ ويؤيّد اقتناعاتكِ ويرسّخ مبادئكِ، وتجدين في كلماته صدى صوتكِ.

سوف تقولين في نفسكِ: «وحده هذا النوع من الكتب يستحقّ وقتي وانتباهي».

وسوف تكونين على خطأ.

***

لكنّ بعضاً من غبار ذلك الكتاب «المملّ» يظلّ عالقاً على أصابعكِ. تغسلين يديكِ مراراً وتكراراً، بلا جدوى. رويداً رويداً تشعرين بوخز خفيف فيها، ثمّ تروح أصابعكِ تشير من تلقاء نفسها إلى الرفّ العالي. تتجاهلينها، وليس هناك أبرع منكِ في التجاهل. أنتِ لا تنكرين أنّ النظرة الخاطفة الّتي ألقيتِها على ذلك الكتاب أثارت فضولكِ، لكنّكِ تقنعين نفسكِ بأنّك لا تملكين الوقت للعودة إليه، فأنتِ شديدة الانشغال، ولستِ أصلاً في حاجة إلى قراءته.

سوف تقولين في نفسكِ: «أنا في غنىً عن كتاب من هذا النوع».

وسوف تكونين، مجدّداً، على خطأ.

أنتِ لستِ في غنىً عن كتاب من هذا النوع، إنّما أنتِ فقط عالقةٌ في شباك أحكامكِ المسبّقة وآرائكِ الجامدة وأفكاركِ المتعنّتة

وروتينكِ المطَمئِن؛ عالقةٌ في حلقة صغيرة مفرغة تُسمّى المألوف، تجعل ذهنكِ عازلاً للأصوات الآتية من خارجها.

رغم مقاومتكِ الظاهرية، يتسلّل شيء من غبار ذلك الكتاب إلى رأسكِ المحكم الإقفال. تتساءلين عن كيفيّة وصوله إلى هناك: أتراكِ لم تكوني متيقّظةً بما فيه الكفاية؟ أتراه دخل من طريق أنفكِ عندما حككتِه، أم من طريق أذنيكِ؟ أسئلةٌ هي محض حجج وذرائع، فأنتِ تتهرّبين فقط من الاعتراف بأنّكِ تواطأتِ مع ذرّات الغبار، بأنّكِ سمحتِ لها بالانسلال، وغضضتِ الطرف طوعاً عن تسرّبها إلى عقلكِ.

تنسلّ ذرّات الغبار إلى داخل رأسكِ إذاً، وتروح تقلّب في عقلكِ وأفكاركِ، معيثةً الفوضى فيها، زارعةً احتمالاتٍ جديدة. تغدو العودة إلى الوراء، إلى زمن ما قبل الكتاب، مستحيلة. تجدين نفسكِ على حين غرّة مهجوسةً به، فتعودين تمدّين ذراعكِ إلى الرفّ العالي، تتناولينه من جديد، وتبدئين القراءة فيه.

هذه المرّة، تقرئين حقاً.

***

العالم الإنسانويّ كتابٌ من النوع الغرائبيّ.

تسمعين فيه أصواتاً لم يسبق لكِ أن سمعتِ ما يشبهها من قبل: همهمات، دندنات، ترانيم، همسات، قرع طبول... أصواتٌ كثيرة، مختلفة، تصيبكِ بالقشعريرة وتثير الذهول في نفسكِ. تقعين فيه على غابات مسحورة، وعلى قبائل تتحدّث بلغات لا تعرفينها. هنا جنّيّة تحلّق فوق رأسكِ بجناحيها البرّاقَين، وهناك كائن عجيب يرحّب بكِ، نصفه فراشة ونصفه الآخر سيف. تقلّبين الصفحات، فتقابلين عمالقةً، وأقزاماً، وعفاريتَ؛ تقابلين كلّ ما قد يخطر أو لا يخطر على

بالكِ. هناك حتى حيوانات ناطقة مستلقية بين السطور، تنتظر أن تكلّميها.

تقولين في نفسكِ: «يا للسحر! لكأنّني مع أليس في بلاد العجائب!».

وسوف تكونين على صواب.

***

العالم الإنسانويّ كتابٌ من النوع الشامل.

تكتشفين أنّه يحوي كلّ شيء: الكلمات الجيّدة والكلمات السيّئة والكلمات القبيحة؛ أفكارٌ متماسكة، وأخرى مزعزعة مزلزلة؛ أفعالٌ مشجِّعة ونعوتٌ مُحبطة؛ لغة الشارع كما زخرفات البلغاء. تُبحرين في عالم التراكيب والجُمَل، بين الفواصل وعلامات الاستفهام. ترين وجوهاً تشبهكِ وأخرى تبتعد عنكِ كلّ البعد، تتعرّفين إلى شخصيّات تحسدينها وأخرى تحسدكِ: تشكيلة متنوّعة تتقافز تحت عينيكِ إلى ما لا نهاية.

تقولين في نفسكِ: «يا للعجب! لكأنّني داخل موسوعة!».

وسوف تكونين على صواب.

***

العالم الإنسانويّ كتابٌ من النوع المُربِك.

تقرئينه، لكنّكِ تشعرين بأنّكِ لم تُحكمي قبضتكِ على معانيه من القراءة الأولى. فتعودين إلى المقدّمة وتبدئين القراءة ثانيةً. تقرئين مرّةً تلو الأخرى، بدون كلل ولا ملل، ومع كلّ قراءة تكتشفين معنى جديداً، شيئاً لم تتنبّهي إليه في المرّات السابقة. تجدين في اكتشافاتكِ هذه لذّةً لا يُعلى عليها. قد لا يناسبكِ ما تكتشفينه، قد لا

يشفي غليلكِ، لكنّ نشوةً ما تسيطر عليكِ مع كلّ قراءة، مع كلّ لمسة، مع كلّ فكرة، مع كلّ طعم يذوب تحت لسانكِ ويُشعل نبضكِ بالحياة. يقلقكِ الكتاب ويؤرّقكِ، لكنّه يحفزّكِ أيضاً. يجعلكِ أكثر غنىً وامتلاءً، وتعرفين أنّكِ لن تستطيعي يوماً توقّع ما سيأتيكِ به.

تقولين في نفسكِ: «يا للروعة! لكأنّني داخل قصيدة لبورخيس!».

وسوف تكونين مجدّداً على صواب.

***

العالم الإنسانويّ كتابٌ من النوع المرعب.

يفضح لكِ أموراً مخيفة، أموراً لم تكوني تدركينها، أو بالأحرى لم تكوني تريدين أن تدركيها أو أن تفكّري فيها أو أن تتخيّليها حتّى. يحثّكِ على العصيان، على التمرّد، على الرفض؛ يزلزل كلّ خليّة فيكِ وكأنّه تيّار كهربائيّ أو ضربة صاعقة. يُشعركِ بالقرف، بالتقزّز، بالغيظ، بالحنق؛ يفتّتكِ ويفكّككِ ويدمّركِ ويعرّيكِ. إنّه صفعة على وجهكِ، لكمة بين ضلوعكِ، ركلة تهزّ أحشاءكِ. يُحرقكِ، يوجعكِ، يهشّمكِ، لكنّكِ لا تكتفين منه ولا تكفّين عن طلب المزيد، عن قراءة المزيد.

تقولين في نفسكِ: «يا للفظاعة! لكأنّني داخل رواية للماركيز دو ساد!».

وسوف تكونين أيضاً وأيضاً على صواب.

***

العالم الإنسانويّ كتابٌ من النوع الممتع.

بينما تقرئين، تضحكين وتبكين وترتجفين وتتجمّدين. تقعين فيه على الكوميديا والدراما، على قصص الحبّ وقصص التشويق،

على ما هو مفصَّل بإسهاب كما على المكثّف الشديد الإيجاز. ترين مشاعركِ وخلجاتكِ وعواطفكِ كلّها على محكّه. يؤجّج هذا الكتاب نيران شغفكِ ويوقظ رغباتكِ الدفينة.

تقولين في نفسكِ: «يا للدهشة! لكأنّني داخل مسرحيّةٍ لشكسبير!».

وستكونين فعلاً كذلك.

***

أنتِ لا تعرفين ما يخبّئه لكِ الكتاب الإنسانويّ، وهنا يكمن جماله. تلتهمين الكلمات التهاماً، لكنّ نهمكِ لا يشبع، ناركِ لا تنطفئ وعطشكِ لا يرتوي. وكلما ظننتِ أنّكِ اكتفَيتِ، أنّكِ فهمتِ واستوعبتِ ووجدتِ، انفتحت أمامكِ صفحة لم تريها من قبل، ومعها أفكار وعطايا واكتشافات لامتناهية، فتنطلقين معها، وبها، في رحلة اكتشاف جديدة.

رحلتكِ نحو ذاتكِ.

المُحاوَرة
لِمَ الإنصات؟

«خلف مفهومَي الصواب والخطأ،
هناك حقلٌ.
هناك ألقاكَ.»
جلال الدين الرومي

أنا: لماذا تدعوني باستمرار إلى صمّ أذنيَّ؟

الوسواس: الحوافز لا تُحصى، أوّلها أنّكِ تعرفين الصواب.

– كيف أستطيع أن أكون أكيدةً من أنّني على صواب إذا كنتُ لا أعرف إلّا ما أعرف، إذا كنتُ لا أصغي سوى إلى صدى أفكاري، ولا أقارن رأيي بالآراء الأخرى؟

– الخطأ والصواب أمران يسهل التمييز بينهما.

– بل هما في معظم الأحيان نسبيّان. مَن حدّد ميزاتهما وفروقاتهما؟ لماذا عليَّ أن أعتمد تعريفاً معيّناً للصواب لا آخر؟ وإن كان تعريفي للصواب هو الصحيح فعلاً، فليس عليَّ أن أخاف من مقارنته بتعريفات أخرى تعارضه، أليس كذلك؟

– قد تزلّين يا صديقتي، فالخطأ مُغرٍ فاتن لعوب، يجذب الإنسان بسهولة إلى براثنه.

– ما برهانكَ على ذلك؟

– برهاني موجود في قصّة البشريّة، وفي الكتب السماويّة الّتي تتّفق كلّها على الشيء نفسه.

– إذا أخذنا هذه الكتب في الاعتبار وصدّقنا ما تقول به، فسنكتشف أنّه لولا «الزلّة» كما تسمّيها، لما وُجِد الجنس البشريّ أصلاً. لا شكّ عندي في أنّكَ على علم بتفاصيل القصّة، قصّة آدم وحوّاء والأفعى وغوايتها: ألا تُظهر هذه القصّة بامتياز أنّ الوقوع في الخطأ هو الأساس الّذي عليه بُني كلّ شيء؟ تخيّل معي لو أنّ صديقنا آدم لم يستسلم للإغراء: لما كنّا موجودين هنا اليوم!

– أفهم من كلامكِ أنّكِ تنوين الإصغاء إلى الأفعى؟

– لا، بل قلْ أنوي الإصغاء إلى العالم، والأخير أقوى بكثير من مجرّد أفعى تهمس في أذني، وأوسع بكثير من اقتناعاتي الضيّقة. أنوي أن أدعوه إلى دردشة حول فنجان قهوة، أن أنظر في عينيه وأصغي إلى كلماته وأذهب معه في نزهة إلى حيث يقودني. أنوي أن أسلّمه مفاتيح أفكاري، وأن أسافر معه إلى أقصى ما يمكنني أن أصل.

– لماذا هذا العناء؟ كلانا يعرف أنّكِ ستعودين إلى المكان نفسه.

– ربّما، لكنّني سأعود أكثر غنًى وامتلاءً، وأكثر نضجاً ووعياً. سأعود وقد تعلّمتُ كيفيّة استعمال عينيَّ وأذنيَّ وعواطفي وعقلي. سأعود وقد جمعتُ كنوزاً لا تقدَّر بثمن على الطريق.

– سوف تجمعين الأوجاع كذلك.

– الأوجاع كنوزٌ أيضاً.

– يا لكِ رومنطيقيّة!

– لستُ رومنطيقيّة بل مغامِرة. المغامرة إكسير الحياة الّذي يحمينا من الابتذال والسطحيّة والروتين. ألا تريدني أن أخرج من رحم أمّي؟ ألا تريدني أن أستمع إلى قلوب الآخرين تخفق في صدري؟ ألا تريدني أن أتفجّر خارج ذاتي كبركان؟ أن أطلق العنان لنفسي وأتفتّح وأتألّق وأختبر؟

– راحة البال أفضل من أيّ اختبار.

– ليس إذا كانت راحة البال تعني أن أنطوي على ذاتي وأدفن نفسي بنفسي داخل نفسي. ليس إذا كانت تعني أن أحيا في زنزانة.

– ربما تحيين في زنزانة، لكن ستكونين فيها سعيدةً مرتاحة مطمئنّة. أليست هذه الأمور جوهر الحياة؟ أليس البحث عن السعادة هو همّ الإنسان الأوّل والأخير؟

– السعادة مفهوم خاطئ، وينال من التقدير أكثر ممّا يستحقّ.

– أرأيتِ؟ أنتِ أيضاً تتحدّثين عن الخطأ!

– إلّا أن الفرق بيننا يكمن في أنّني لا أعتبر الخطأ مطلقاً، بل أؤمن بتعدّد الآراء فيه، وحوله. في كلّ خطأ تقريباً مساحةٌ للأخذ والردّ، وإلّا لما كنتُ أتناقش معكَ أصلاً، أليس كذلك؟ أليس في إصغائي إليكَ بينما تعارضني، دلالة حاسمة على أهمّية تمرين كالإصغاء؟

– افهمي: جلّ ما أحاول القيام به هو حمايتكِ من نفسكِ ومن العالم.

– هذه ليست حماية: أراني كتلك القطعة الصغرى في الأجزاء الّتي تكوّن دمية روسيّة، وعليَّ أن أكسر القشور الّتي تغلّفني، الواحدة تلو الأخرى، لكي أخرج من ذاتي وأعانق الهواء الطلق. وإلّا فسأبقى سجينة نفسي إلى الأبد.

– ولِمَ هذا التوق إلى الخروج؟ أنتِ هنا في حالٍ أفضل، أنتِ هنا في بيتكِ.

– قد أكون هنا في بيتي، لكنّ بيتي فقير. فيه لا أنا أعيش، ولا أدع مَن حولي يعيش كذلك، فجميعنا مترابطون و...

– لا وألف لا. إيّاكِ أن ترتبطي بشيء أو بأحد. كوني كمثل لوحٍ رخاميّ أبيض نقيّ في قاع مستنقع، لا يتسرّب إليكِ شيء. هكذا، مهما اتّسخت مياه هذا المستنقع ومهما توحّلَت، تظلّ طبيعتكِ المنيعة، الصلبة، سدّاً في وجهها.

– يا له من تشبيه حزين! أتدرك بشاعة الوحدة الّتي تشتهيها لي؟ لن أكون نقيّة بل فارغة، لن أكون منيعة بل متحجّرة، لن أكون صلبة بل مغلقة. أنتَ تحكم عليَّ بالعزلة والجمود، فيما أنا نهمة إلى اكتشاف مياه المستنقع، ولديَّ فضول هائل للتفاعل مع مفاجآتها.

– متى كان النهم مرادفاً للتسمّم، وجبت عليكِ محاربته. متى كان الفضول مرادفاً للتعرّض للأخطار، وجب عليكِ الاستغناء عنه. ثمّ أنتِ تعرفين تمام المعرفة ماذا يختبئ في مياه المستنقع: ليس هناك من مفاجآت البتّة، بل خيبات متتالية.

– ألا ترى كم أنت جبان؟ تدّعي أنّكَ تريد حمايتي، لكنّ ما تريده حقّاً هو نقل عدوى جبنكَ إليَّ.

– كفّي عن إهانتي!

– سأكفّ، عندما تكفّ بدوركَ عن محاولة منعي من مغادرة قوقعتي، وعن حثّي على الاستسلام والانسحاب.

– ماذا تريدين على وجه التحديد؟

– أريد أن أشرّع أبوابي للكون، أن أفسح له كي يتسلّل إلى كلّ طيّة من طيّات روحي، ليبعث فيها شيئاً من تنوّعه وتوهّجه وكثافته واختلافاته. أريد أن أفكّر، أن أغوص في الآخَر، أن أقدر على الأخذ والردّ، أن أتعلّم، فكلّ مَن وما يحيط بي مشروع معلِّم. كلّ مَن وما يحيط بي يخبرني سرّاً، يهمس في أذني رسالةً ما، ويمدّني بالوحي

وبالقدرة على أن أتجدّد وأتوالد من نفسي. أريد أن أكون إسفنجة تمتصّ ما حولها، حتى ولو عنى ذلك أن أمتصّ في الآن نفسه الأوساخ. فأنا أعرف أنّني أستطيع تكريرها من شوائبها، أو لفظها متى شئتُ.

– إنّ هذه القوقعة الّتي تمتعضين من البقاء فيها هي هويّتكِ الإنسانيّة! قوقعتكِ هي درعكِ الّتي تحميكِ من الألم.

– الفارق شاسع بين أن يحمي المرء نفسه وبين أن يرفض الاكتشاف والتعلّم. الإنسان لا ينفكّ يبحث لنفسه عن مظلّات واقية، بينما الإنسان الانسانويّ يغازل المطر ولا يخاف من مراقصته.

– ما قد يسقط على رأسكِ ليس مطراً فحسب، بل حجارة.

– وإن يكن... أين المشكلة في بضعة جروحٍ وتشقّقات؟ أصلاً وحدها السطوح المتشقّقة هي الّتي تتيح للضوء النفاذ إلى ما وراءها.

– لكنّكِ ولدتِ ملساء خالية من أيّ تشقّقات.

– لا، بل عندما ولدتُ كانت مسامّي كلّها منفتحة على الحياة، وعينايَ محدّقتين في أفق لا حدود له ولا جدران ولا أسوار. الولادة في ذاتها فعلٌ يرمز إلى الخروج من القوقعة. لكنّنا على مرّ السنين نعيد فبركة قواقع جديدة للأسف، كبديل من الرحم الأوّلى الّتي كانت تحتضننا، بدلاً من أن نجازف باستكشاف ما يوجد خارجها ونتحرّك.

– لمعلوماتكِ، الحركة لا تقودك حكماً إلى الأمام، فأنتِ قد تتحرّكين إلى الوراء أيضاً.

– لا ضير، فذلك درس. التطوّر مدٌّ وجزر فمدّ. أحياناً نرجع إلى الوراء فقط لكي نحظى بقوّة الدفع اللازمة. المهمّ ألّا نكون في جمود.

– فكّري كما شئتِ، لكنّ الجمود وحده هو الّذي يؤمّن للإنسان الحماية والأمان والسلامة الّتي يحتاج إليها.

– هل أنتَ متأكّد ممّا تقوله؟

– طبعاً أنا متأكّد.

– إذاً، تعال معي، أريد أن أُريكَ شيئاً.

– ماذا؟

– سأُريكَ تابوتاً: هناك يضعون الكائنات الّتي كانت حيّة واستحالت جماداً. آمل أن يروقكَ، فأنتَ على ما يبدو تشتهي الإقامة في مثله.

أمّا أنا فلا.

وصيّة أفلاطون
أن تنحسري أو أن ترحبي

هل تعرفين الحصاة الصغيرة
التي، إذ تُرمى في بحيرةٍ،
توقظها من غفوتها؟

كوني تلك الحصاة،
كوني اليد الّتي تقذفها،
كوني البحيرة الّتي تستقبلها
والمياه الّتي تتراقص معها،
جميعها وفي آن واحد.

سرعان ما سيدهمكِ الجمود:
آنذاك ستكونين غارقةً في العدم،
تائقةً إلى حصاة دخيلة،
متلهّفةً إلى يد مزعجة،

مشتاقةً إلى بحيرة الحياة النابضة
الّتي تخلّتْ –
مؤقتاً، تخلّتْ – عنكِ.

رحلة المتعاطِف

(هو الكريم المُحِبّ المعنيّ العطوف)

«منعتُ نفسي من البكاء،
فصارتْ من حجرٍ دواخلي.»
دانتي أليغييري

القصّة
ليلة فقأتُ الدمّلة

«رجلٌ واحد يمارس الحنان في القفر
يساوي كلّ المعابد الّتي تُبنى في هذا العالم.»
جاك كيرواك

تعود إليَّ الذكرى بوضوح، على الرغم من أنّني كنتُ آنذاك لا أتجاوز الخامسة من العمر. في صباح كلّ يوم، في طريقنا إلى المدرسة، كانت أمّي تقف أمام واجهة أحد المحالّ وتتأمّل فستاناً أزرق معروضاً فيها. كنتُ ألمح في عينيها بريق الرغبة في شرائه، حتّى إنّني كنتُ أشعر بها تتخيّل نفسها مرتديةً إياه. كانت أمّي امرأة جميلة، ولمّا تزل. كم كان سيليق بها ذاك الفستان! لم أفهم يومذاك لماذا لم تشتره. كلّ ما فهمتُه أنّها ذات صباح قرّرَت أن تغيّر الطريق الّتي نعتمدها لبلوغ مدرستي، فتوقّفنا عن المرور أمام ذلك المحلّ. في ما بعد، فهمتُ: كان عليها أن تختار بين أن تدفع ثمن أقساطي المدرسيّة وبين أن تشتري ذلك الفستان. اختارتْ أن تدفع أقساط مدرستي، وبقيَتْ على خيارها هذا طوال حياتها: ظلّت تختار تأمين تعليمي على حساب رغباتها الخاصّة.

لم يكن ذلك الفستان الأزرق باهظ الثمن. لم يكن أحد فساتين غوتشي أو شانيل، بل كان فستاناً بسيطاً معروضاً في إحدى واجهات محالّ شارع «أراكس» المتواضعة، المجاورة للحيّ الّذي كنا نسكن فيه. لكنّ والديَّ لم ينتميا يوماً إلى ما يسمّونه الطبقة المرتاحة، وقد اضطرّا إلى النضال والمكافحة بضراوة طوال حياتهما ليؤمّنا لنا حاجاتنا، هما اللذان لم تعاملهما الحياة يوماً بتساهل، لكنّهما أخذا على نفسيهما عهداً بعدم المساومة يوماً على متطلّبات تعليمنا، أخي وأنا.

كنتُ أكره وضعنا، وأكره ضيق الحال الّذي يجبرهما على التشاجر في شؤون المال عندما كنّا صغيرَين، وأكره المجهود الجمّ الّذي يتطلّبه منهما تأمين كلّ حاجة إضافيّة لنا. كان ذلك يُبهت بريق الألعاب، وبريق حذاء العيد الجديد، وبريق القلم المُكلِف الّذي أصررتُ مرّةً على شرائه لمجرّد أنّ زميلاتي في الصفّ يملكن مثله. فضلاً عن شعوري الهائل بالذنب، أنا الطفلة الواعية لصعوبة الأمور، لكن غير المدركة أن لا دخل لها بها.

هكذا تحوّلتُ مراهِقةً غارقة بالمرارة، وصار اهتمامي كلّه منصبّاً على بؤسي أنا. لم أكن أنظر حولي لأدرك فداحة مصائب المحيطين بي، الّذين لا تقلّ مشكلاتهم عن مشكلاتي. حبستُ نفسي داخل دمّلة من الأنانيّة واللامبالاة والشفقة على الذات، ولم أعد أرى سوايَ.

***

ثمّ حلّ شهر كانون الأوّل من عام 1986. زار صفّنا، عشيّة فرصة عيد الميلاد، طالبٌ في كلّيّة الطبّ اسمه طوني، ليمنحنا درساً توجيهيّاً في مجال الدراسات الطبّية لمَن ترغب منّا في خوض ذلك التخصّص. عندما أنهى طوني حديثه، أخبرَنا أنّ لديه تقليداً يقوم به ليلة الميلاد من كلّ سنة، مع أصدقائه: يزورون منازل عائلات فقيرة ويوزّعون

عليهم حاجات كالطعام والبطّانيّات والملابس وبعض الألعاب البسيطة.للأطفال. سألنا إن كان بعضنا مهتمّاً بمرافقتهم هذا العام لتقديم المساعدة. أذكر أنّني كنتُ أوّل مَن رفَعَتْ إصبعها.

للعلم، تطوّعتُ لا رغبةً في المساعدة، بل لأنّي شعرتُ بانجذاب حيال طوني، وكنتُ أخطّط للفت نظره.

الخطوة الصعبة الأولى من أجل تنفيذ خطّتي هذه، كانت أن أقنع والديَّ بأن يسمحا لي بالذهاب. عزفتُ أمامهما على الوتر الإنسانيّ العاطفيّ ما استطعت، حتّى وافقا.

الخطوة الصعبة الثانية كانت أن أجد ما أرتديه للمناسبة. صببتُ جلّ تركيزي على هذا الموضوع، وكأنّني كنتُ على موعد غراميّ مع طوني في ذلك المساء. لم أفكّر ولو لحظةً واحدة في العائلات المحتاجة الّتي كنّا سنزورها. لم أتوقّف لحظة عند ما يمكنني أن أقدّمه إليها. لم يكن يهمّني سوى طوني، وأهملتُ كلّ ما عداه.

عندما وصل طوني وأصدقاؤه إلى أمام بيتي ليقلّوني، نزلتُ السلالم مزهوّةً بملابسي الجميلة وقبّعتي الفاتنة. كنتُ مأخوذة بنفسي إلى درجة أنّني لم ألاحظ أنّ يديَّ كانتا فارغتين. لم يكن لديَّ ما أعطيه. كنت عمياء عن كلّ ما يحيط بي، عن كلّ ما هو خارج عنّي.

كنت عمياء، أجل، ثمّ رأيت: ما إن بدأنا جولتنا على المنازل، حتى تفتّحَتْ عيناي ورأيت. رأيتُ البيوت الصغيرة الضيّقة، والحيطان الهزيلة المتداعية، والوجوه الضعيفة الباهتة. رأيتُ الفقر والعوز والنقص والبرد والرطوبة؛ رأيتُ الحاجة إلى مياه ساخنة هنا، إلى غسّالة هناك، إلى مدفأة، إلى كلّ ما كنت أعتبره من بديهيّات الحياة. رأيتُ، أنا المنغمسة في نفسي حدّ الغثيان، أجسام الأطفال الّتي ضاقت ملابسها عليها، وكأنّ النموّ لعنة مُنيت بها.

فجأةً غادرتني المرارة الّتي كانت معشّشة في روحي لسنوات، بعدما محتها معاناة تلك الأسر المحتاجة، وكلّ ما بقي فيَّ كان شعوراً غامراً بالعار: خجلتُ من نفسي، من ملابسي الجميلة وقبّعتي الفاتنة، من يديَّ الفارغتين وقلبي القاسي. فقأتُ الدمّلة الّتي كنت قد سجنتُ روحي فيها، وأدركتُ كم كانت مليئة بالقيح: قيح لامبالاتي ورثائي لذاتي وغروري وأنانيّتي.

بالمناسبة، لم يلاحظ طوني وجودي تلك الليلة.

***

مع مرور السنوات، اكتشفتُ قدرة الحبّ على الشفاء، شفاء النفس وشفاء الآخرين. تعلّمتُ أنّ ثمّة دائماً ما يمكنني أن أعطيه، وإن لم أكن أملك الكثير. تعلّمتُ كذلك أن أكون ممتنّة لكلّ ما عشته في حياتي، وخصوصاً للأمور الّتي كانت ذات يوم سبب تعاستي ومرارتي. صرتُ ممتنّة لأنّني ترعرعتُ في حيّ متواضع. ممتنّة لأنّ والديَّ ضحّيا بالكثير لكي يتمكّنا من إرسالنا، شقيقي وأنا، إلى مدرسة جيّدة. ممتنّة لأنّ أمّي كانت تخيط لي الملابس الّتي لا تستطيع شراءها، كي لا أشعر بعقدة نقص أمام صديقاتي. ممتنّة لأن الترف الوحيد و«الزينة» الوحيدة في منزلنا كانا الكتب. ممتنّة لأنّني بدأتُ أعمل مذ كنت في الخامسة عشرة من عمري. ممتنّة لأنّني لا أزال أقوم بألف عمل لكي أمنح ولديَّ حياةً أسهل من تلك الّتي عشتها، من دون أن أنسى أن أزرع فيهما حبّ العطاء والمشاركة. ممتنّة لكلّ الليالي البلا نوم الّتي أوصلتني إلى مَن وما أنا عليه اليوم... نعم، صرتُ ممتنّة لهذه الأمور وسواها، لأنّي اكتشفتُ أنّ قسوة الظروف الّتي نشأتُ فيها هي مصدرٌ أساسيّ من مصادر قوّتي.

ولأوضح: لا أمتدح الفقر، فأنا أحبّ امتلاك أمور جميلة وثمينة، لكنّي بتُّ أعرف في قرارتي أنّ هذه الأشياء ليست ضروريّة لسعادتي: ولداي ضروريّان لسعادتي، الرجل الّذي أحبّ ضروريّ لسعادتي، عائلتي ضروريّة لسعادتي، وأصدقائي، وقارئاتي وقرّائي، وعملي، وكتاباتي، وصحّتي... أي إنّني بتُّ أدرك الفرق بين الحدّ الأدنى المطلوب لحياة هانئة وكريمة، والإضافات الّتي ننعم بامتلاكها لكنّنا لن نهلك بغيابها. وبعدما أدركتُ اليوم مرحلةً أستطيع فيها تكريم نفسي وشراء أشياء لم أكن لأحلم بها حتّى، لا تكمن متعتي في امتلاك هذه الأشياء، بقدر ما تكمن في وعيي للتحدّيات الّتي اضطررتُ إلى خوضها، وربحها، من أجل الحصول عليها.

أعلم أنّني محظوظة. أعلم أنّ الألوف من الناس من حولي يعانون الجوع والبرد والعوز والتشرّد. لم أعد عمياء عن مصائب أولئك الّذين يجب أن يكافحوا كلّ يومٍ شرّ كفاح لينالوا خبزهم اليوميّ. لقد تعلّمتُ أنّه لا يمكننا أن نكون لامبالين، فاللامبالاة رفاهيّة مقيتة لا نستطيع، نحن البشر، تحمّل تكلفتها.

لقد وصلتُ الآن إلى مرحلةٍ أستطيع فيها شراء أيّ فستانٍ لوالدتي، تلك المرأة العظيمة الّتي حرمَت نفسها، هي ووالدي، أشياء كثيرة بهدف تعليمي وتثقيفي، ما جعلني أحقّق الإنجازات الّتي حقّقتُها. لكنّي أعترف بأنّ الأزرق لا يزال أقلّ الألوان المفضّلة عندي حتّى هذا اليوم.

***

في ليلة الميلاد من العام التالي، شاركتُ في العمل الخيريّ نفسه، مع المجموعة نفسها. زرنا منازل عائلاتٍ محرومة، وحاولنا بثّ شيء من السعادة والأمل في أبنائها. نجحتُ تلك السنة في تحضير بعض الهدايا البسيطة للأطفال: كان والدي يعمل في مطبعة، وكان يجلب معه إلى

البيت أحياناً أكداساً من الأوراق، فصنعتُ منها دفاتر جميلة زيّنتُها ولوّنتُها بنفسي. وزّعتُها على الأولاد، وتمنّيتُ أن يكتبوا عليها أحلاماً جميلة، أو أن يرسموا بين طيّاتها ابتساماتٍ يستحقّونها.

في تلك الليلة، كنتُ أرتدي جينزاً عتيقاً وحذاءً رياضيّاً.

في تلك الليلة، لاحظ طوني، أخيراً، وجودي.

المَقصِد

جسر

«أعيش حياتي في دوائر

لا تنفكّ تتّسع

لتحوي العالم أجمع.»

راينر ماريا ريلكه

العالم الإنسانوي جسرٌ.

جسرٌ بين عالمَين، بعيد واحدهما عن الآخر أيّما بعد. تفصل بينهما هوّة عميقة، وادٍ لا يُسبَر غوره. تقفين في عالمكِ وتلقين بنظركِ إلى العالم الآخر. لا تتمكّنين من رؤية شيء. ربّما لا شيء هناك. لا أحد. على كلّ حال، لا تملكين رفاهيّة إضاعة وقتكِ في التساؤلات. تبتلعكِ الحياة بأمورها ومشاغلها وتأخذ اهتمامكِ كلّه.

***

العالم الإنسانويّ جسرٌ.

تسمعين أحياناً صدى صرخة مخنوقة آتية من العالم الآخر، وفي أحيان أخرى تصلكِ استغاثة، أو تزعزع طمأنينتكِ دمعة تلتمع في

البعيد، تنزل على خدّ أحدهم فيصل بعض رذاذها إلى وجهكِ الهادئ. لكنّكِ لا تملكين الوقت للالتفات أو لمسح الرذاذ، فأنتِ لديكِ همومكِ وآلامكِ وتنهّداتكِ، ولديكِ صرخاتكِ واستغاثاتكِ ودموعكِ الّتي تنهككِ وتستحوذ على انتباهكِ. تقولين في سرّكِ: «إنّ هذا الجسر لَمصدر إلهاء». تديرين له ظهركِ وتروحين تسيرين مبتعدة عنه بخطىً سريعة. تهمس لكِ الطفلة الصغيرة الّتي كنتِها والّتي لا تزال قابعة في وجدانكِ: «أغمضي عينيكِ وسيختفي الوحش. تجاهليه فيتلاشى». تأخذين بنصيحتها، وتتجاهلين.

تمرّ الأيّام وتكملين حياتكِ، لكنّكِ لا تنفكّين تشعرين بالبرد يعشّش فيكِ، على الرغم من المعاطف الكثيرة الّتي تلتحفين بها، على الرغم من الجدران العالية العازلة الّتي تبنينها حول نفسكِ، على الرغم من الحطب الّذي يشتعل في موقدكِ. لا شيء ينجح في بثّ الدفء في أوصالكِ. تتساءلين: من أين تراه يأتي، هذا البرد كلّه؟

يهمس لكِ الجسر من بعيد: «إنّه آتٍ من دواخلكِ أيّتها الحمقاء». لكنّكِ تتجاهلين كلامه. تكملين سيركِ في الاتّجاه المعاكس وتبتعدين عنه أكثر فأكثر.

تمرّ الأيّام وتكملين حياتكِ، لكنّكِ تشعرين بفراغ هائل في أعماقكِ، على الرغم من الأثاث الفاخر الّذي تملئين به بيتكِ، على الرغم من الملابس الأنيقة الّتي تعجّ بها خزانتكِ، على الرغم من المجوهرات الّتي تزخر بها جواريركِ. لا شيء ينجح في سدّ الفجوة الّتي تتأكّلكِ. من أين تراه يأتي، هذا الفراغ كلّه؟

يهمس لكِ الجسر من بعيد: «إنّه آتٍ من دواخلكِ أيّتها الحمقاء». لكنّكِ تتجاهلين كلامه. تكملين سيركِ في الاتّجاه المعاكس وتبتعدين عنه أكثر أكثر.

تمرّ الأيّام وتكملين حياتكِ، لكنّكِ تشعرين بعتمة حالكة تطبق على صدركِ ولا تنفكّ تتكاثف حولكِ، وفيكِ، على الرغم من الشموع والمصابيح والثريّات الّتي تضيئينها، على الرغم من النوافذ الكثيرة الّتي تشرّعينها، على الرغم من الساعات الّتي تمضينها تحت أشعّة الشمس. لا شيء ينجح في إنارة جزء ولو بسيطاً من السواد الّذي يكتنفكِ. من أين تراها تأتي، هذه العتمة كلّها؟

يهمس لكِ الجسر من بعيد: «إنّها آتية من دواخلكِ أيّتها الحمقاء». لكنّكِ تتجاهلين كلامه. تكملين سيركِ في الاتّجاه المعاكس وتبتعدين عنه أكثر فأكثر.

تمرّ الأيّام وتكملين حياتكِ، لكنّكِ تشعرين بحزن يثقل عليكِ، على الرغم من النشاطات المسلّية الّتي تشغلين نفسكِ بها، على الرغم من البرامج الّتي تحرصين على متابعتها وملء وقتكِ بها، على الرغم من ممارستكِ هواياتكِ بانتظام ودقّة. لا شيء ينجح في إزاحة وزر الكآبة عن قلبكِ. من أين تراه يأتي، هذا الحزن كلّه؟

يهمس لكِ الجسر من بعيد: «إنّه آتٍ من دواخلكِ أيّتها الحمقاء». لكنّكِ تتجاهلين كلامه. تكملين سيركِ في الاتّجاه المعاكس وتبتعدين عنه أكثر فأكثر.

تمرّ الأيّام وتكملين حياتكِ، لكنّكِ تشعرين كأنّ الأيّام تحدث من دونكِ، بينما أنتِ واقفة على الرصيف تتفرّجين.

***

برّادكِ طافح بأصناف المأكولات الشهيّة، بمقدوركِ أن تشتري ما لذّ وطاب، تتناولين وجباتكِ بانتظام: خمس مرّات يوميّاً أو أكثر أحياناً، لكنّكِ لا تنفكّين تشعرين بالجوع: جوع، لا ينجح أيّ طعام في سدّه. يؤكّد لكِ أطبّاؤكِ أنّكِ بخير، أنّ فحوص دمكِ ممتازة وأنّك لا تشكين

من أيّ علّة، لكنّكِ لا تنفكّين تشعرين بالتعب. حسابكِ المصرفيّ دسم، لديكِ من المال أكثر بكثير ممّا قد تحتاجين إليه، لكنّكِ لا تنفكّين تشعرين بالفقر.

لماذا؟ تسألين نفسكِ لماذا؟

يهمس لكِ الجسر: «لأنّـه يجب أن تعطي لكي تمتلئي أيّتها الحمقاء».

أيّ نوعٍ من الكلام الفارغ هذا؟!

لكنّكِ تقرّرين أن تنصاعي، فقد طفح كيلكِ، ولم يعد في إمكانكِ تحمّل العذاب الّذي أنتِ فيه. تقرّرين أن تمتحني صدق الجسر مقابل السلام الداخليّ الّذي يعدكِ به. تسيرين في اتّجاهه وأنتِ تفكّرين بينك وبين نفسكِ: «إنّه فعلاً لجسر مُناكد. فلأجتزه إلى الجهة الأخرى وإلّا فلن يتركني في سبيلي».

تجتازين الجسر إذاً، وترين ما في العالم الآخـر: ترين أناساً يرتجفون، بلا سقف يقيهم البرد. ترين أناساً مرضى، لا يملكون ثمن زيـارة الطبيب. ترين أنـاساً يتضوّرون جـوعاً، ليست لديهم كسرة خبزة يقتاتون بها. ترين جميع الّذين لم تتنبّهي لوجودهم من قبل: المحرومين، العاطلين من العمل، المشرّدين، الضعفاء، المحزونين، اليائسين...

سرعان ما تتبدّى لكِ الناحية الثانية من الجسر مكاناً مروّعاً، فتلومين نفسكِ على إذعانكِ لاستفزازه لكِ: «لماذا جئتُ إلى هذا المكان؟ يا له خطأً فادحاً. ليس الذنب ذنبي إن كنتُ أنا أملك الكثير وهؤلاء محرومين، فأنا جنيتُ ما أملكه بعرق جبيني». تديرين ظهركِ للجسر مرّةً أخرى وتسيرين في الاتّجاه المعاكس، عائدةً إلى بيتكِ الوثير ومجوهراتكِ الثمينة وبرّادكِ الملآن. ترجعين إلى حيث لا نقص ولا حرمان ولا قلّة.

فجأةً يستوقفكِ في طريقكِ صوتٌ خفِر: «سيّدتي أرجوكِ، توقّفي». تنظرين وراءكِ فيقع نظركِ على وجه لاجئة سوريّة، تقف عزلاء في البرد. اسم المرأة راما طهرانيّ، وهي الّتي قضت نحبها ليلة 15 كانون الثاني 2015 داخل خيمة في بعلبك، لبنان، من فرط الصقيع. يقترب منكِ طيف راما بهدوء ويقول لكِ: «أنتِ محقّة، ليس الذنب ذنبكِ إن كنتِ تملكين كلّ ما تملكينه، ولكن أليس في مقدوركِ أن تسهمي بشيءٍ منه للتعويض على مَن لم يُعط مثل حظّكِ في الحياة؟».

ترتعش أوصالكِ على إثر هذا الكلام، لكنّكِ تفكّرين: «لماذا تقع عليَّ أنا مسؤوليّة التعويض؟ أليس الأجدر بالمسؤولين عن كلّ هذا البؤس أن يعوّضوا عن جرائمهم، من مثل الحكّام المستبدّين والأنظمة الفاسدة وأمراء الحرب المتوحّشين وتجّار السلاح الطمّاعين وشبكات المساعدة الاجتماعيّة العاجزة؟ فليتحمّل أولئك عواقب أعمالهم!».

يهدّئ هذا الكلام من روع ضميركِ، فتعاودين سيركِ.

ولكن سرعان ما يستوقفكِ صوتٌ خفِر ثانٍ: «سيّدتي أرجوكِ، توقّفي». تستديرين فتقع عيناكِ على وجه رجل أميركيّ لا يملك ضماناً صحّيّاً ولا الـ27$ اللازمة ثمن المضادّات الحيويّة الّتي وصفها له الطبيب. إنّه كايل ويليس، الشاب العشرينيّ الّذي تُوفّي في سينسيناتي في الولايات المتّحدة يوم 29 آب 2011، بعدما تفشّى التهاب حادّ في أسنانه ووصل إلى دماغه. يخاطبكِ طيف كايل قائلاً: «أنتِ محقّة، ليست مسؤوليتكِ أنتِ التعويض، ولكن أليس في استطاعتكِ أن تساعديني كي لا يظلّ ابني يتيماً؟».

ترتعش أوصالكِ على إثر هذا الكلام لكنّكِ تفكّرين: «لا يمكنني أن أساعد الجميع!».

يهدّئ هذا الكلام من روع ضميرك، فتعاودين سيركِ.

ثمّ يستوقفكِ صوتٌ ثالث: «سيّدتي أرجوكِ، توقّفي». تلتفتين ناحية الصوت، فترين طفلةً سودانيّةً مبلوعة المعدة ذابلة العينين من فرط الجوع والعطش. ليس اسم الطفلة مهمّاً. ما يهمّ في القصة أنّ ثمّة نسراً يحلّق فوق رأسها، منتظراً لحظة موتها لكي ينقضّ عليها. لن يطول انتظاره، فهي ستموت ذات يومٍ من آذار 1993، وستُطعم النسر لحمها.

تنظر إليكِ الفتاة بوجهها الملائكيّ وتقول: «أنتِ محقّة. لا يمكنكِ أن تساعدي الجميع. ولكن ألا يمكنكِ أن تساعدي شخصاً واحداً في الأقل؟».

تذكّري: شخصٌ واحدٌ فقط. ليس المطلوب أكثر.

المُحاوَرة

لِمَ التعاطف؟

«نقيض الحبّ ليس الكراهية، بل اللامبالاة.

نقيض الجمال ليس البشاعة، بل اللامبالاة.

ونقيض الحياة ليس الموت: إنّه اللامبالاة.»

إيلي ويزل

أنا: لماذا تطلب منّي باستمرار أن أدير ظهري للآخرين؟

الوسواس: عندكِ ما يكفيكِ من الهموم.

– بلا شكّ، لكنّ ذلك لا يحول دون أن أخصّص حيّزاً من الوقت لمساعدة مَن يحتاج إليّ.

– لماذا؟

– لأنّني أنا الأخرى صادفتُ ذات يومٍ مَن ساعدني.

– ليس هذا صحيحاً، أنتِ صنعتِ نفسكِ بنفسكِ.

– أنتَ مخطئ للغاية: ربّما لم يساعدني أحد مادّيّاً، لكنّ أشخاصاً كثراً دعموني في طريقي أو حفّزوني أو حثّوني على عدم الاستسلام. هناك مَن قدّم إليّ نصيحة مفيدة، وهناك مَن قال لي

جملة انتشلتني من بؤرة، وهناك مَن أعطاني فرصة ثمينة، وهناك مَن منحني دعماً معنوياً أو عاطفياً كنتُ أحتاج إليه.

– (على مضض) أجل، أنتِ محقّة.

– أرأيتَ؟ لا أحد يصنع نفسه بنفسه. ثمّة ألف طريقة وطريقة يمدّنا بها الكون بالمساعدة، أكانت هذه فرصةً جيّدة أم رياحاً مؤاتية أم نصيحة قيّمة أم توصية ثمينة...

– صحيح، لكنّكِ أنتِ الّتي اغتنمتِ الفرصة الجيدة، وفتحتِ أشرعتكِ للريح المؤاتية، وأفدتِ من النصيحة القيّمة، ونفّذتِ التوصية الثمينة، وأثبتِّ أنّكِ أهل للثقة. بعملكِ الدؤوب وجهدكِ المثابر استحققتِ المكان الّذي أنتِ فيه اليوم. لم تتركي الأمور تحصل من تلقاء نفسها، لم تنسلّي ولم تتسلّلي.

– لا، لم أفعل، ولكن من الطبيعي أن أردّ الجميل وأسدّد بعضاً ممّا أدين به للحياة.

– الأشخاص الّذين مدّوا لكِ يد العون لا يتوقّعون منكِ شيئاً في المقابل إلّا نجاحكِ.

– لا أتكلّم على هؤلاء. المساعدة ليست صفقة تجاريّة ولا عقد بيع وشراء. أنا لا أدين للّذين دعموني إلّا بخروجي من الحفرة الّتي كنتُ فيها. لكنّني أتحدّث عن الآخرين: عن أولئك الّذين أراهم حولي، وهم في حاجة إلى العون نفسه الّذي حصلتُ عليه أنا في أحد الأيام. هكذا أسدّد ديوني، هكذا أردّ الجميل: عبر تقديم يدٍ صلبة لأولئك الّذين يتوقون الى الخروج من حفرتهم.

– لماذا يُهيّأ لي أنّكِ تشعرين بالذنب، وكأنّكِ تخجلين بما تملكينه وبما حقّقتِه؟

– على العكس! فأنا أملك كلّ الحقّ في الاستمتاع بما أنا فيه وعليه اليوم، لكنّ ذلك لا يحول دون رغبتي في مساعدة الآخرين والاهتمام بأولئك الّذين لا يملكون الكثير.

– لكنّهم كثر، أكثر بكثير ممّا تتصوّرين، وأنتِ امرأة واحدة، لا تملكين الوقت ولا السبل الكافية لمساعدتهم جميعاً. تذكّري أنّكِ لستِ إلهةً!

– لَكَم أنا ممتنّة لأنّني لستُ إلهة، فضميري ما كان ليحتمل عبئاً مماثلاً. لستُ إلهة، صحيح، لكنّني رفيقة على الدرب. ثمّ مَن قال إنّني أتوهّم أنّني أستطيع مساعدة الجميع؟

– أليس لهذا السبب توجد المؤسّسات والجمعيّات الخيريّة والمنظّمات غير الحكوميّة؟ أليس هذا دورها هي؟

– طبعاً. لكنّ هذه المؤسّسات والجمعيّات والمنظّمات لا تعمل بفعل السحر: هم الناس الّذين يغذّونها ويدعمونها عبر تقديم وقتهم أو معرفتهم أو أموالهم.

– حسناً، فلنفترض أنّ الواجب يدفعكِ إلى مدّ يد العون: كيف تعرفين مَن يستحقّ المساعدة ومَن لا؟ كيف تميّزين بين المحتاجين فعلاً، والنصّابين؟

– لا تسير الأمور على هذا النحو: ليست المسألة مسألة مَن يستحقّ ومَن لا، مَن هو جدير بالمساعدة ومَن هو غير جدير بها. العطاء يعطي من ذاته ويثق بعدالة الكون من دون أن يتوقّع شيئاً في المقابل. يؤمن بحكمة يديه، وكفى. ثمّ إنّ الموضوع لا يقتصر على الجوانب المادّيّة، فسُبُل المساعدة لا عدّ لها ولا حصر.

– من مثل...؟

– مثل الاعتراف بمواهب الآخرين، وتعزيزها متى وكيفما استطعنا. للأسف يشعر البعض بأنّ مواهب الآخرين تهدّدهم،

فيقمعونهم ويحاربونهم بدلاً من أن يساعدوهم، ويبغضونهم ويتجاهلونهم بدلاً من أن يشجّعوهم. يرون في نجاح هؤلاء تقليلاً من شأن نجاحاتهم، وفي تفوّقهم منافسة لهم على الصدارة. إنّ للكلمات الطيّبة المُحِبّة أثراً عظيماً في العالم الإنسانويّ، وهي مرتبطة وثيق الارتباط بالاعتراف بقدرات الناس وتقدير الجمال والعبقريّة والتميّز فيهم. كذلك فإنّ الابتسامة اللطيفة أو هزّة الرأس المشجِّعة أو الأذن المتعاطفة، من أساسيّات الحياة الإنسانويّة ولا ينبغي الاستخفاف بأثرها في النفوس.

– (بسخرية) سبحان الله! مَن يسمعكِ يخل للوهلة الأولى أنّكِ يسوع المسيح!

– لا شكّ عندي في أنّ المسيح كان إنساناً إنسانويّاً من الدرجة الأولى، وهذه صفة أعظم بكثير من صفة الإله الّتي ألصقوها به، وأعظم من الكنيسة الّتي مأسستْ خطابه لكي تبني سلطتها وهيمنتها على ظهره. في كلّ حال، ليس هذا جوهر حديثي.

– ما هو جوهر حديثكِ إذاً؟

– إنّه الحبّ والتعاطف والعطاء والودّ، وهي ليست أعاجيب، بل تجترح الأعاجيب. نحن في حاجة الى القيام بخطوة واحدة فقط، لكي نكتشف سحرها.

– أيّ خطوة؟

– أن نضع أنفسنا مكان المتوجّعين، لكي ندرك كم أنّ ظروفهم صعبة وغير قابلة للاحتمال.

– أنتِ امرأة حسّاسة للغاية: القيام بخطوة مماثلة قد يدمّركِ نفسيّاً.

– هذه حجّة الأنانيّين. إنّ من واجبي أن أشعر مع الآخرين، أن أحسّ بعجزهم وألمهم وبؤسهم، أن أتعاطف مع يأسهم وحزنهم وحرمانهم، أن أتخيّل جوعهم وبردهم وحاجتهم.

– أليست عائلتكِ أولى باهتمامك؟

– طبعاً. لا أقصد أن نمارس العطاء على حساب حاجات عائلتنا. ولكن، على سبيل المثل، عوض أن نشتري لأحد أولادنا قميصاً باهظ الثمن، في مقدورنا أن نشتري له قميصاً أرخص بقليل، وأن نشتري بالمال الّذي وفّرناه جوارب لطفلٍ لاجئ، أو كيلوغراماً من اللحم لعائلة محتاجة.

– اسمعي نصيحتي: ما إن تبدئين بأمور مماثلة، حتى تنهمر عليكِ الطلبات من كلّ حدب وصوب. سوف تشرّعين الباب على فيضان لا قدرة لكِ على مواجهته. أم تراكِ تخالين نفسكِ بيل غيتس؟

– أتعلم أنّ بيل غيتس تبرّع بنصف ثروته للأعمال الخيريّة؟

– لماذا تستغربين؟ تبرّع بنصف ثروته ولا يزال ملياردير اً! العطاء سهل عندما يكون المرء على هذا القدر من الثراء الفاحش.

– ليس هذا صحيحاً في الضرورة، فكلما ازداد البعض غنىً، قلّ عطاؤهم. أصلاً، ليس حجم ما نعطيه هو المهمّ، بل الالتزام.

– التزام ماذا؟

– التزام الإنسانويّة. تُظهر الإحصاءات أنّ نصف سكّان العالم يعيشون في البؤس والعوز. لو تعهّد كلّ شخص من النصف الثاني أن يتكفّل مساعدة شخصٍ واحد على الأقلّ من أولئك الأقلّ حظّاً منه، لأصبح العالم جحيماً أقلّ ضراوة ووحشة. أحياناً دولارٌ واحد يُحدث فرقاً، أو فرصة عمل، أو بطّانيّة، أو ساعة من وقتنا.

– تجعلين الأمر يبدو في غاية السهولة.

– إنّه فعلاً سهل. الصعوبة تكمن في اللامبالاة: ذلك هو المرض القاتل الحقيقيّ الّذي يُهلكنا.

– لماذا تقولين هذا؟

– لأنّ قلوبنا، يا صديقي، لا تصير قلوباً بحقّ، إلّا متى أتحنا لها أن تخفق خارج صدورنا.

وصيّة أفلاطون
أن تتجاهلي أو أن تهتمّي

ما دامت قبضتكِ مشدودة،
فلن تعلو شجرةٌ في يدكِ.
لن يقف عصفورٌ على أغصانها
ويطرد بأغنيةٍ ظلالكِ.
لن يهيم قمرٌ في سمائها،
لا ملائكة، ولا حتى عاصفة.

ستكون يدكِ قلعة مهجورة
يحرسها تنّين الأنانيّة.
لن يمدّ أحدٌ يده
للأميرة العالقة
في برج وحدتكِ.

لا تحتاجين الى الكثير لكي تقتلي التنّين:
ابتسامةٌ تكفي أحياناً،
أو عناقٌ، أو معطفٌ من صوف،

وستنفتح يدكِ من تلقاء نفسها

لمعجزة الحبّ

مثل وردةٍ نائمة

كانتْ تنتظر قبلةً

لتزهر.

رحلة الأبيّ

(هو الشامخُ الرأس العزيزُ النفس سيّدُها)

«لا ثمن باهظاً لقاء امتياز أن تمتلك ذاتكَ.»

فريديرك نيتشه

القصّة

مدام سترايسند وأنا

«وتحسب أنّكَ جُرْمٌ صغيرٌ،
وفيكَ انطوى العالمُ الأكبرُ.»
علي بن أبي طالب

البعض يراني جميلة. البعض الآخر لا.

من ناحيتي، أجدني غالباً «مقبولة»، وعلى قدرٍ لا بأس به من الجاذبيّة. ولكن في بعض الأيّام، أستيقظ صباحاً وأنظر في المرآة، فأراني قبيحة. في أيّام أخرى، نادرة الحدوث، يخيَّل إليّ أنّي رائعة الجمال. أظنّ أنّ علاقة معظم الناس بصورتهم عن أنفسهم هي على هذا المنوال.

لكنّ الأمور لم تكن دوماً بهذه البساطة.

***

عمليّة انتقالي من الغفلة إلى النور، أي من عدم وعيي البتّة لمظهري الخارجيّ إلى إدراكي له، لم تتمّ بسلاسة، بل بطريقة فجّة للغاية.

كان أحد أقربائي ماهراً في الرسم، ويبرع على وجه الخصوص في الكاريكاتور، فقرّر لمناسبة عيد ميلادي الثاني عشر أن يهدي إليَّ رسماً كاريكاتوريّاً يمثّلني. وقفتُ أمامه بفرح عظيم، وكنتُ في غاية الابتهاج والحماسة، منتظرةً النتيجة بفارغ الصبر. ولكن، على الرغم من إدراكي تمام الإدراك أنّ إحدى أهم خصائص الكاريكاتور أنّه يشوّه أو يبالغ في الأقل، إذ يركّز على معالم معيّنة بارزة أكثر من سواها، لم أكن جاهزة يومذاك، على ما يبدو، لرؤية ما كان مرسوماً على تلك الورقة الصفراء الباهتة. نظرتُ، ويا ليتني لم أنظر! لقد كان الرسم عبارة عن أنف ضخم يحتلّ المساحة كلّها، يلتصق به وجه فتاة بالكاد يُرى. صُعِقتُ وهرعتُ إلى المرآة: هل أنفي حقاً كبير الى هذا الحدّ؟ آنذاك رأيته للمرّة الأولى في حياتي. رأيتُ أنفي. كان الكاريكاتور على حقّ: كيف لم ألحظ حجم هذا الأنف اللعين من قبل؟

مرّت السنوات، وكدتُ أنسى مع الوقت تلك الضربة لكبريائي، عندما حصل أمر آخر.

كنتُ في ذلك اليوم على الشاطئ مع صديقتي المفضّلة، نورما، وهي الفاتنة الّتي ما إن تمرّ في مكان حتّى تجد العيون كلّها تلاحقها. حسبي أنّ الحيوانات المنويّة الّتي لم تبلغ نورما عندما كانت محض بويضة، قد انتحرَت من فرط الحزن. كانت تلك الصبيّة خالية من العيوب، كلّ شيء فيها مثاليّ: من شَعرها مروراً بعينيها وصولاً إلى أسنانها وبشرتها وجسمها ورشاقتها، وأنفها طبعاً. على الرغم من حبّي العميق لها، لم أكن استطيع الامتناع عن الشعور بشيء من الغيرة منها، بين الحين والآخر.

في العودة إلى قصّتي، كنّا إذاً نحن الاثنتين نستمتع بشمس لبنان الحارقة، بخفّة لا يعكّر مزاجها الخوف من سرطان الجلد الّذي لم نكن قد سمعنا به بعد، وإذا بشابّين يقتربان منّا. هنا لا بدّ من أن

أشير إلى أنّ تفاعلي مع الجنس الآخر كان محدوداً جداً خلال سنوات مراهقتي نتيجةً لعقليّة والدي المحافظة، والتربية التقليديّة الّتي تلقّيتُها، ومدرسة البنات الّتي ارتدْتُها، وظروف الحرب الّتي زادَت الاختلاط تعقيداً، وطبعاً لا أنسى شغفي بالقراءة الّذي كان يتلازم مع مِراس العزلة. باختصار، كنتُ مراهقة منسحبة، غريبة الطباع وشديدة الخجل.

كان الشابّان مستغرقَيْن في الحديث مع نورما، مأخوذَيْن بها تماماً، إلى أن استدار أحدهما ناحيتي وقال لي: «أتعلمين أنّكِ تشبهين الممثّلة والمغنّية الأميركيّة باربرا سترايسند؟».

اجتاح كياني في تلك اللحظة فرحٌ غامر وابتهاج لا يوصف. صحيحٌ أنّني لم أكن قد سمعتُ بباربرا سترايسند من قبل، ولم أرَ يوماً صورة لها، لكنّني فكّرتُ في أنّها إن كانت ممثّلة ومغنّية، فلا بدّ من أن تكون جميلة! لم أكن واسعة الاطّلاع على شؤون السينما والموسيقى العالميّة آنذاك، والوجوه الّتي كنتُ أعرفها تُعَدّ على أصابع اليد، ومنها بروك شيلدز ومادونا، والاثنتان حسناوان للغاية.

ما كدتُ أصل إلى البيت في ذلك المساء، حتّى هرعتُ لأبحث عن صورة لصديقتي وشبيهتي باربرا سترايسند في المجلّات القليلة المتوافرة في البيت، ولكن بلا جدوى. لم أجد أيّ بورتريه لها. فكان عليَّ أن أنتظر حتى صبيحة اليوم التالي لأجرّ أمّي ونذهب إلى أقرب محلّ يؤجّر أفلام فيديو لأستعير أحد أفلامها. أذكر أنّنا استأجرنا فيلم «الفتاة الظريفة» (Funny Girl)، كما أذكر أنّني كنتُ أقفز وأستعجل الخطى في طريق العودة، من فرط تشوّقي لمشاهدة الفيلم وبطلته، بصفتها دليلاً قاطعاً على جمالي.

ثمّ... شاهدتُ الفيلم.

شاهدتُه ويا ليتني لم أشاهده! ما الّذي كان يشدّ النظر ويلفت الانتباه في وجه العزيزة سترايسند؟ ما الشيء الّذي لا مفرّ من رؤيته والتحديق فيه كلّما ظهر وجهها على الشاشة؟

أنفها. أنفها الكبير.

وداعاً أيّها الوهم الجميل، وداعاً يا حسني الموعود.

***

منذ ذلك اليوم، صار أنفي هوسي. صار الشيء الأوّل الّذي أراه صباحاً في المرآة، والشيء الوحيد الّذي تقفز إليه عينايَ عندما أقلّب صوراً لي. اختصرتُ كياني كلّه في ذلك الغضروف، في تلك القطعة من العظم. منذ ذلك اليوم، صرتُ أنا أنفي. تعاطفتُ مع سيرانو دو بِرْجِراك؛ احتقرتُ بينوكيو الّذي كان يتعمّد تكبير أنفه بكذبه المتواصل، وأُغرمتُ بـ«ميس بيغي» وثقتها الطافحة بنفسها رغم أنفها السوريالي. مع الوقت اعتمدتُ استراتيجيّات ماكرة، فصرتُ أنظر إلى الناس وجهاً لوجه عندما أكلّمهم، كي لا أتيح لهم فرصة رؤية بروفيلي، كما صرتُ أتجنّب البكاء قدر المستطاع لئلاً يتورّم أنفي وينتفخ ويتضخّم حجمه أكثر. وبعد: أقسم أنّي كدتُ أصاب بانهيار عصبيّ عندما قرأتُ ذات يوم أنّ الأنف لا ينفكّ يكبر مع العمر. وقع ذلك الخبر عليَّ كالصاعقة: إن كان أنفي على هذه الحال، وأنا بعدُ في السادسة عشرة، فكيف سيبدو عندما أبلغ الثلاثين، أو الرابعة والأربعين؟ على غرار المراهقين جميعاً، حملتُ «السلّم بالعرض». في اختصار، لم أعد أرى أبعد من أنفي.

ولأكنْ عادلة: لم يكن أنفي «عقدتي» الوحيدة. عوامل أخرى كانت تزعزع علاقتي بجسدي المراهق، كمثل تأرجح وزني المستمرّ، وأعراض الوسواس القهريّ الّذي كنتُ أعانيه، وأيضاً وخصوصاً، تمجيد

المجتمع للجسد المثاليّ والشكل الّذي لا تشوبه شائبة: فبحسب عارضات الأزياء اللواتي كان كمالهنّ الظاهريّ في المجلّات يجتاح خيالي ويجلده، لم أكن طويلة بما يكفي، ولا ممشوقة بما يكفي، ولا هيفاء بما يكفي. أمّا صدري فكان أصغر من اللازم، وفمي أكبر من المقبول، وإحدى أسناني فيها اعوجاج مزعج، وهكذا. أيضاً، لم تنحصر ثقتي المتزعزعة بنفسي في مظهري وحده، بل طالَت كذلك أفكاري وكتاباتي الأولى ورأيي العامّ بنفسي.

كنتُ كلّما التقيتُ أحدهم للمرّة الأولى، أبحث أوّل ما أبحث في عينيه/عينيها عن الانطباع الّذي خلّفته، عمّا يفكّر أو تفكّر بي؛ فرأي الآخرين، ورأيهم وحده، هو الّذي كان يصقل رأيي بنفسي. كنتُ أشكّك في صدق الإطراءات الّتي تُوجَّه إليَّ وأضخّم النقد وأتسوّل القبول والتقدير والموافقة بلا خجل ولا تردّد، بجوع خائف بلا قاع. كان ينبغي لي أن أنال رضى الآخرين واستحسانهم لكي أعيش، لكي أستمرّ، لكي أنهض كلّ صباح، لكي أحبّ نفسي، أو على الأصحّ لكي أحتملها وأتمكّن من التعايش معها.

كنتُ سجينة.

***

لن أدّعي أنّني تخطّيتُ اليوم هذه المرحلة تماماً، وأنّني أصبحتُ سيّدة نفسي وآرائي مئة في المئة. لن أدّعي أنّني تغلّبتُ على قلقلات روحي وتزعزعاتها الكثيرة، تلك الّتي ذكرتُ وتلك الّتي لم أذكر. لن أدّعي هذا الانتصار العظيم، لا. لكن بات في وسعي أن أقول إنّني اجتزتُ على هذا المستوى ما يشبه الصحراء الشاسعة اللامتناهية.

لم أنجز الرحلة المذكورة بين ليلة وضحاها: استراتيجيا شبه حربيّة ساعدتني على إتمامها. استراتيجيا قائمة أساساً على إبعاد

كلّ الّذين من شأنهم بثّ ذبذبات سلبيّة في حياتي، وكلّ الّذين يجلبون معهم طاقة مهدِّمة ومقوِّضة. ما إن أصبحتُ أميّز بين النقد البنّاء والنقد المدمّر، بين الّذين يريدون الأفضل لي وأولئك الّذين لا يبطنون الخير في نفوسهم، حتّى أقفلتُ بابي على المبغضين. انقطعتُ عن الّذين يحاولون جذبي إلى أسفل، محوتُهم من حياتي ورفعتُ أسوار دفاعاتي في وجوههم. أخرجتُ جهاز التحكّم عن بعد، وقلبتُ القناة. إذا نقلتْ إليّ صديقة مزعومة كلاماً مؤذياً عنّي عن «حسن نيّة»، على رغم أنّني كنتُ أشرتُ إليها من قبل ألّا تفعل، أبعدتُها على الفور من حياتي.

أعترف بأنّ الرغبة في معرفة ما يُقال عنّي خلف ظهري كانت أحياناً أشدّ وأقوى من غريزتي لحماية ذاتي ممّا قد يخدشها ويؤذيها، لكنّني سرعان ما اكتشفتُ أنّ تلك الثرثرات لا تستحقّ عناء انتباهي. لا يعني ذلك بأيّ طريقة أنّني مارستُ القمع، فأنا لم أحاول يوماً، ولن أحاول، أن أُسكِت النمّامين: جلّ ما في الأمر أنّي صرتُ ألغي نميمتهم من دائرة أذنيَّ وقلبي وحياتي. فليذهبوا ويتكلّموا عنّي كما يشاؤون في دوائرهم، إنّه حقّهم من دون أيّ شكّ. أمّا أن أعزلهم عنّي، فهذا حقّي أنا من دون منازع.

هكذا، بعد طعنات لا تُحصى أصابتني في الصميم، وجدتُني أخيراً ذات يوم منيعة الى حدّ ما: توقّفتُ عن الاكتراث بما يسمّيه الناس «أحكام المجتمع»، توقّفتُ عن الهجس بما يقولون عنّي ويفكّرون فيَّ. لم أعد توّاقة لإرضائهم، لم أعد خائفة من نظراتهم، لم أعد فريسة ضغوطهم، لم أعد خاضعة لتوقّعاتهم ورغباتهم وأهوائهم. لقد اختفوا. تلاشوا من أمام عينيَّ وصرتُ أراني أنا في كلّ مرّة أنظر فيها إلى المرآة، أراني وحدي، وأحكم بنفسي على نفسي، فأحاسبها أو أهنّئها.

قد يظنّ المرء أنّ الجزء الصعب من معركتي انتهى. لكن لا. فبعد عملي على إبعاد شبح المجتمع الإرهابيّ، وأحكام أهله ونميمتهم وقسوتهم، وجدتُني أمام حكم أقسى، أكثر تشدّداً وتطلّباً وصرامة. وجدتُني أمام ناقدٍ أكثر حسماً وأقلّ تساهلاً، هو أنا. لكن على الأقلّ أصبحت معايير الحكم معاييري الخاصّة، على قدر المستطاع، ومثلها متطلّباتي وآمالي ورغباتي وحاجاتي. لقد نجحتُ في نهاية المطاف في تحرير نفسي من سلاسل المجتمع الشالّة، بعدما كنتُ أسيرتها لمعظم سنوات مراهقتي وشبابي.

طبعاً، ما زلتُ أهتمّ على سبيل المثل برأي قرّائي في كتاباتي، ولا يزال قلبي يرقص لمديح صادق وينقبض لنقدٍ لاذع. لكنّ الفارق الوحيد هو أنّني لم أعد أقيّم نفسي بناءً على ذلك، لم أعد أحدّد حجمي على هذا الأساس، فقد بتُّ مقتنعةً بأنّ الكلمة، أيّ كلمة، تبقى في سياق ما حرّض عليها، وأنا وحدي أحدّد ما إذا كان من المفيد أن أُخرجها منه وأن ألتزمها في حياتي. أنا وحدي أختار ما يناسبني وما لا يناسبني، حتى لو كان مَن أثق بهم لا يوافقونني الرأي. إذا كنتُ مقتنعة بأمر ما، فسأفعله وسأمضي به حتّى النهاية حتى لو حذّرني شخص مقرّب إليّ من فعل ذلك. أعرف أنّ فيَّ شوائبَ كثيرة بعد، لكن على الأقلّ هي عيوبي وشوائبي أنا، وأنا الّتي أملك القرار في أن أتصرّف إزاءها.

عودٌ على بدء: لقد آل بي الأمر الى إجراء عمليّة تجميل لأنفي، ولن أكون من الخبث بحيث أقول إنّني نادمة على ذلك، لكنّني أعترف بأنّه كان تصرّفاً جباناً، متأتّياً من هشاشة فيَّ لم أستطع التعايش معها. ولكن على الأقلّ لم يعد أنفي عدوّي: لقد عقدنا هدنة، أنا وهو. أعرف أنّه كان في إمكاني أن أتصالح معه بطريقة أخرى، لكنّني أسامح نفسي على هذا الضعف.

صحيح أنّني خضعتُ لعمليّة تجميل، ولكن، صدِّقوا أو لا تصدِّقوا، لا يزال أنفي هو أوّل ما أنظر إليه صباحاً في المرآة. أتأمّله بلا كره، ولا ضغينة، ولا نفور، ولكن بشيء من القلق والتوجّس. لا يزال يسكنني خوفٌ من أنّه لن يتوقّف يوماً عن النموّ!

***

كلمة أخيرة: باربرا سترايسند هي من أحبّ الممثّلات إلى قلبي اليوم. وهي، في رأيي، رائعة الجمال.

المَقصِد
مرآة

«ينبغي للمرايا أن تتروّى قبل أن تعكس.»
جان كوكتو

العالم الإنسانويّ مرآة. في أحد الأيام تنظرين فيها، فلا ترين نفسكِ: بل ترين عيوناً أخرى في انعكاسات الزجاج: عيون بنّيّة، زرقاء، خضراء، عابسة، مبتسمة، ناعسة، لوزيّة الشكل... عيون مختلفة لا تُعدُّ ولا تُحصى، كلّها مفتّحة، كلّها تحدّق فيكِ.

***

تلمحين أوّل ما تلمحين عيون والدَيْكِ: أربع عيون طيّبة، حنونة، متسامحة ومتعاطفة. عينا والدكِ تلتمعان فخراً كلّما التقتا بعينيكِ، وعينا والدتكِ تخبرانكِ بأنّكِ جميلة كيفما كنتِ. تعجبكِ كلمة «جميلة» وتدغدغ كبرياءكِ، ولكنّ عبارة «كيفما كنتِ» تثير فيكِ شيئاً من القلق. ماذا تراها تقصد بها؟ تحاولين تناسي هذا الجزء من الجملة والتركيز على المديح. لكنّه لا يلبث أن يعود ليجتاح مرآتكِ ويحتلّها كلها. كيفما كنتِ... كيفما كنتِ... كيفما كنتِ. عبارةٌ

معذِّبة، تحتمل الكثير من التأويل. تقرّرين حسم المسألة، فتمسكين بفوطة تنظيف وتمسحين عيون والدَيْكِ عن الزجاج. ترتجف يدكِ بعض الشي، تشعرين بوخز في قلبكِ، لكنّكِ تعلمين أنّه لا بدّ لكِ من ذلك.

***

ثانياً، ترين عيون أصدقائكِ: عيون لطيفة مهذّبة، تغمزكِ وتقول لكِ إنّكِ جديرة بالحبّ. «جديرة بالحبّ» صفة ليست سيّئة، بل هي رائعة حتّى، لكنّكِ تعيدين التفكير فيها مراراً وتكراراً: ماذا تراها تعني على وجه الدقّة؟ أتعني أنّكِ محبوبة وجذّابة بالنسبة إليهم فقط، أم عموماً؟ ثمّ لماذا تراهم غمزوا تلك الغمزة؟ أليس ذلك دليلاً على كذبة بيضاء ما؟ تعيدين قلب الأمور في رأسكِ وتكتشفين أنّ هذه العبارة المدوّرة الزوايا لا تفي بالغرض. فالتهذيب مُهادِن ومضلِّل، بينما ما تريدينه أنتِ هو معرفة الحقيقة. تمسكين بفوطة التنظيف نفسها، وتمسحين عيون أصدقائكِ عن المرآة. تدركين تمام الإدراك أنّكِ ستشتاقين إليها وإلى لطفها، لكنّكِ تعلمين أنّ الأفضل أن تفعلي هذا.

***

ثالثاً، تجدين نفسكِ تحدّقين في عيون مجتمعكِ. عيون تبدو لكِ قويّة، واثقة، مسيطِرة، تنظركِ وتقيسكِ من أماكن مختلفة: عيون الجيران والأقارب والزملاء، عيون محرّري المجلّات ومخرجي البرامج ومبتكري الإعلانات، عيون مصمّمي الأزياء وأطبّاء التغذية والمدرّبين الرياضيّين وأطبّاء الجلد وأطبّاء التجميل، وهكذا. عيون تملأ مرآتكِ وتوحي لكِ أنّها تعرفكِ وتعرف كلّ شيءٍ عنكِ وتعرف حتّى كيف ينبغي لكِ أن تكوني.

تلك العيون تنصب لكِ فخاخاً، تمدّكِ بطعم لذيذ وراء آخر، وتجدين نفسكِ عالقةً بين براثنها كصيد ثمين. تحاولين جاهدةً أن

تطابقي توقّعاتها، أن تكوني محطّ إعجابها، لكنّكِ سرعان ما تكتشفين أنّكِ عاجزة عن إرضائها جميعاً، بل عاجزة عن إرضاء أيٍّ منها. أحكامها المسبّقة قاسية في حقّكِ، وهي لا تكفّ تطالبكِ بالمزيد: تطلب منكِ الشيء ونقيضه، تتعارض، تتشابك، تتضارب في الآراء، لكنّها جميعها تتّفق ضدّكِ. تدبّ الحيرة فيكِ وتشعرين بالإحباط. تفكّرين: «لا يمكنني أن أكمل حياتي على هذا النحو. لا بدّ لي من أن أفلت نفسي من قبضة هذه العيون. لا بدّ لي من أن أكمل بحثي عن الحقيقة في مكانٍ آخر».

لكنّ عيون المجتمع دبقة، لزجة، ملتصقة بمرآتكِ وترفض الانزياح. العمليّة صعبة هذه المرّة. تفركين الزجاج طويلاً، بكلّ ما أوتيتِ من قوّة وعزيمة، إلى أن تخور قواكِ. لكنّكِ تنجحين أخيراً في التخلّص منها. ربّما ليس منها كلّها، لكنّكِ على الأقل صرتِ الآن تتربّصين بها. تعرفين حقّ المعرفة أنّ مهمّتكِ ليست سهلة، لكنّكِ تعرفين أيضاً أنّها ضروريّة.

***

رابعاً، تلمحين عيون أعدائكِ. أعداء حتميّون اكتسبتِهم في الطريق، كدّستِهم إلى جانب إنجازاتكِ، منهم مَن يعاديكِ لأمر فعلتِه، ومنهم مَن يعاديكِ لمجرّد معاداتكِ. أعداء متحلّقون حولكِ، توّاقون لأذيّتكِ، تسمعينهم يهمسون لكِ: «أنتِ بلا قيمة ولا أهمّية، ولا أحد يقيم لكِ أيّ اعتبار. أنتِ قبيحة ومتطفّلة ولا تملكين ذرّة موهبة أو ذكاء. اعترفي بضعفكِ، اعترفي بنقصكِ، اعترفي بهزيمتكِ...». كلماتهم تنزل عليكِ كمطرٍ من خناجر، فتخرّين على ركبتيكِ وتتقوقعين على ذاتكِ. «هم على حقّ»، تفكّرين. «لقد كشفوا حقيقتي. أنا مثيرة للاشمئزاز والنفور ولا أستحقّ سوى الاحتقار».

لكنّكِ، إذ تتخبّطين في وحول شكوككِ، تروحُ ذكرياتٌ بعيدة تطرق بابكِ وتعيد إليكِ شيئاً من ماضيكِ. تذكرين تلك المرّة الّتي هنّأكِ فيها شخصٌ غريب على إنجاز قمتِ به؛ تذكرين الإطراءات الجميلة الّتي أتتكِ على حين غرّة وبثّت فيكِ السعادة والنشوة؛ تذكرين شعوركِ بالرضى عن نفسكِ وتستعيدين طعم كرامتكِ. تستجمعين قواكِ وتقفين على قدميكِ وتمسكين بالفوطة الّتي باتت حليفتكِ، وتمحين عيونهم من المرآة. تمسحينها عيناً عيناً، على رغم معاندتهم ومشاكستهم وشتائمهم. ثمّة عزيمة دفينة فيكِ، عزيمة ترفض الانصياع، لا تنكسر ولا تنحني. في اللحظة الأخيرة، قبل تلاشيهم تماماً، تبتسمين لهم وترفعين إصبعكِ الوسطى في وجوههم تحيّة وداع.

تدركين أنّه ليس تصرّفاً لائقاً، لكنّكِ لم تستطيعي الامتناع عن القيام به.

***

خامساً، ترَين عيون جميع الّذين وقعتِ في حبّهم على مرّ حياتك. ترَينها تستيقظ من أعماق المرآة وتحدّق فيكِ. عيون ترسل إليكِ مئات الرسائل المختلفة، تغازلكِ أو تمدحكِ أو تقدّم لكِ الدعم أو تعبّر عن تأييدها لكِ ولآرائكِ. رسائلها كثيرة، لكنّ أمراً واحداً يجمعها، لا يخفى عليكِ: فتلك العيون تنظر إليكِ لكنّها لا تراكِ، بل ترى أصحابها فيكِ: أنتِ مرآتهم. إنّهم يتكلّمون مع صورتهم فيكِ ويبحثون عن وجوههم في وجهكِ. أيضاً، تشعرين بأنّهم يبالغون في التودّد إليكِ، فيضيفون «البهار والملح» إلى إطراءاتهم وجملهم الرنّانة. تنساقين قليلاً، تنجرّين خلف كلامهم المعسول، لكنّ شيئاً ما في داخلك يخبركِ أنّه لا يمكنكِ أن تعتمدي عليهم تمام الاعتماد، فتقولين في نفسكِ: «ثمّة شيء آخر ينتظرني في نهاية الطريق؛ شيء آخر سيخرج إلى الضوء عمّا قريب».

تأتين بالفوطة نفسها وتمسحين العيون. إذ تفعلين ذلك، تشعرين بنفسكِ خائفةً وعزلاء، وتشعرين بالأسى على بعضهم، لكنّكِ تكملين، لأنّكِ تعلمين في قرارة نفسكِ أنّكِ على الطريق الصحيح.

***

بعد سنوات وسنوات من المسح والفرك والتنظيف، تجدين نفسكِ أمام مرآة فيها عينان اثنتان فقط: عينان صارمتان لكنّهما عادلتان، تحاسبانكِ لكنّهما أيضاً تجيدان مسامحتكِ وتعلّمانكِ كيف تسامحين نفسكِ. عينان لا تكذبان عليكِ، فلا تغاليان في مدحكِ ولا تستمتعان بذمّكِ؛ لا تفرطان في تعداد مناقبكِ ولا تمعنان في التشديد على مثالبكِ. عينان، أحسن ما فيهما، صدقهما، فتُريانكِ ما يشدّكِ إلى أسفل كما تُبرزان لكِ ما قد يحملكِ إلى أعلى. تخبرانكِ بعيوبكِ ولكن أيضاً بكلّ ما يجعلكِ فريدة ومتميّزة عن الآخرين. في أحيانٍ كثيرة تهزآن بكِ هزءاً لطيفاً يحول دون وقوعكِ في العجرفة، وفي أحيانٍ أخرى تزجرانكِ زجراً يمنعكِ من التخاذل. عينان تراقبانكِ بدقّة، لا تبخلان عليكِ بنظرة تشجيع عندما تحتاجين إليها، ولا بغمزة مؤازرة عندما تجتاحكِ الشكوك.

عينان لن تستطيعي، ولن تريدي يوماً، محوهما من مرآتكِ: عيناكِ.

المُحاوَرة
لِمَ الإباء؟

«فكّرتُ كم من المؤلم أن أكون مُستبعَدة؛
ثم فكّرتُ كم أسوأ أن أستبعد نفسي بنفسي.»
فيرجينيا وولف

أنا: لماذا توحي إليَّ باستمرار بأن أكره ذاتي؟

الوسواس: انظري إليكِ: لا شيء فيكِ جدير بالإعجاب.

– مقارنةً بماذا، بِمَنْ؟

– أتريدين منّي فعلاً أن أُبرِز لكِ لائحة بأجمل 100 امرأة ورجل على وجه هذه الأرض؟ هل سمعتِ بإليزابيث تايلور؟

– صديقتكَ إليزابيث كانت تعاني من نموّ غير طبيعيّ للشعر، وكانت تحلق وجهها كلّ صباح.

– حسناً... ماذا عن أشتون كوتشر؟

– أصابع قدميه متلاصقة.

– ميغان فوكس؟ جيرارد باتلر؟ كارولينا كوركوفا؟ هاري ستايلز؟ ماذا عنهم؟

– الأولى إبهاماها مبلطحتان، الثاني أذناه مشوّهتان، الثالثة لا سرّة لها، الرابع لديه أربع حلمات... إنّه فعلاً لأمرٌ مملّ أن تجبرني على تعداد هذه الأمور.

– ما الّذي تلمّحين إليه؟

– أنْ لا أحد كاملاً. لا أحد مثاليّاً. كلّنا لدينا عيوب وأمور تزعزع ثقتنا بأنفسنا: أمور جسديّة أو غير جسديّة، ظاهرة أو خفيّة، أمور قد يراها الآخرون وقد لا يرونها. هل لديكَ مثلاً أدنى فكرة عن عدد الأشخاص غير الراضين عن وزنهم ويعانون جرّاء ذلك؟ سأخبركَ. سبعون مليون شخص في العالم! ليس هذا رقماً اخترعته، بل هو نتيجة دراسة للبروفسور غلين غايسر. أتعلم ما كانت النتيجة الأخرى، الصادمة، الّتي خرجتْ بها دراسته؟ أنّ أكثر من نصف النساء اللواتي شملتهنّ الإحصاءات يفضّلن أن تدهسهنّ شاحنة على أن يصبحن بدينات، وثُلثي الرجال يفضّلون أن يكونوا أغبياء على أن يعانوا زيادة في الوزن.

– أين العيب في ذلك؟ أليس من الطبيعيّ أن يريد الانسان الظهور بمظهر جميل؟

– بل من الأفضل له أن «يشعر» بأنّه جميل.

– هذان أمران وثيقا الصلة أحدهما بالآخر، أليس كذلك؟

– ليس بالضرورة. أن تشعر بأنّكَ جميل ينبع من شعورك بأنّكَ في صحّة وعافية، جسديّاً وعقليّاً، ومن ثقتكَ بنفسكَ. صدِّقني، شتّان ما بين الصحّة الجيّدة والشكل المثاليّ الّذي تروّج له الثقافة الإعلانيّة: فمعايير هذا الشكل، الّتي لا ننفكّ نقارن أنفسنا بها، بالكاد تنطبق على نسبة خمسة في المئة من نساء العالم ورجاله.

– يا لكِ منافقة! أنتِ أيضاً تتبعين حِمْيات غذائيّة بنحو متقطّع مذ كنتِ في الثانية عشرة!

– لا أنكر ذلك البتّة. لا أنكر أنّني واحدة من السبعين مليون مسكين ومسكينة الّذين يهجسون بوزنهم. حتّى إنّني أزن نفسي كلّ صباح، تصوّر! لكنّني لا أنكر أيضاً أنّني لا أكفّ عن محاولة التحرّر من هذا الخوف التافه الّذي يكبّلني.

– وكيف السبيل إلى ذلك؟

– عبر حبّي لنفسي أوّلاً وأخيراً، حبّاً غير مشروط، وغير متوقّف على أرقام أو مقارنات أو إرهاب أتعرّض له مثل كثيرين غيري؛ عبر الاعتراف بما فيَّ من حُسن؛ عبر الإيمان بأنّ لديَّ شيئاً متميّزاً ومختلفاً وجذّاباً؛ عبر رفض ما هو معمّم ومصقول وأملس. لا بدّ لي من أن أحبّ نفسي، وأن أبحث باستمرار عمّا يجعلها فريدة ومتوهّجة.

– أليس ذلك مرادفاً للنرجسيّة؟

– ينبغي لكلٍّ منّا أن يكون نرسيساً، وإنْ باعتدال. علاقة الحبّ مع الآخر لا يمكن أن تنجح إذا لم نكن نرجسيّين؛ لا يمكن أن نستمتع بعلاقة جنسيّة إذا لم نكن نرجسيّين؛ لا يمكن أن نكون أهلاً صالحين حتّى، إذا لم نكن نرجسيّين. كلّ الكلام على التضحية الدائمة بالذات والامّحاء من أجل الآخر، مدمِّر ومُهلك للفرد. يستحقّ الواحد منّا أن يكون أكثر من مجرّد كبش فداء.

– ألا يتعارض كلامكِ هذا مع ما قلتِه سابقاً عن التعاطف؟ ألا يتناقض مع حبّ الآخرين ومؤازرتهم في شقائهم؟

– قطعاً لا. قال غوتاما بوذا يوماً: «تعاطفكَ مع الآخرين ناقصٌ حكماً إذا لم تتعاطف أولاً مع نفسكَ». لا يمكن المرء أن يحبّ الآخر وأن يتقبّله وأن يساعده إذا لم يبدأ بحبّ نفسه وتقبّلها ومساعدتها. إنّه لأمر طبيعيّ ومنطقيّ.

– ولكن، ألا يفضي حبّ الذات الى التساهل معها، فيتعارض تالياً مع التوق الى التطوّر والتحسّن الّذي أثنيتِ عليه أيضاً في

حديثٍ سابقٍ بيننا؟ مَن يرضَ عن نفسه فلن يتسلّق الجبال ولن يكافح يا عزيزتي!

– أن يحبّ المرء نفسه لا يعني أن يستسلم لما هو عليه. أن يحبّ المرء نفسه لا يعني ألّا يرغب في التقدّم وتسلّق الجبال، لا يعني أن يصبح مهملاً متراخياً متساهلاً مع عيوبه. لكنّ ذلك لا يعني أيضاً أن يجلد نفسه كلّ يومٍ ويلومها ويمقتها. إنّ سعي المرء لتحسين نفسه وصقلها وتهذيبها، ليس مرادفاً لأن يقلّل من شأنها أو يبغضها. لنعمل على أن نصير بشراً أفضل، أجل، ولكن لنحبّ أنفسنا في تلك الأثناء. ثمّ إنّ لكلّ شخص إيقاعه ومعاييره الخاصّة لتحسين نفسه، بحسب اهتماماته ورغباته ورؤاه، وهي اهتمامات ورغبات ورؤى لا بدّ من أن تنبع من ذاته لا من تأثيرات الآخرين فيه، أي لا بدّ من أن تتوافق مع حياته ونمط عيشه لا مع حياة يراها أو يشاهدها أو يقرأ عنها في المجلّات. لذلك تبقى الخطوة الأهمّ، التفكير والسؤال والتشكيك وإعادة النظر في كلّ شيء لاختيار ما يناسبنا وما يصقل جوهرنا ويزيد من وهج إنسانويّتنا. المهمّ هو التحرّر من نظرة الآخرين إلينا، من عيونهم الّتي لا تنفكّ تراقبنا وتحكم علينا وتزننا.

– ما النفع من تحرّرنا من عيون المجتمع إذا كان ذلك يؤدّي الى استبعادنا وخسارتنا حبّ الناس؟

– هناك دوماً مَن سيحبّنا لحقيقتنا، ومَن سيقدّرنا ويحترمنا ويتقبّلنا كما نحن. قد لا نراهم، لكنّهم في مكانٍ ما في انتظارنا. لعلّنا لا نراهم لأنّنا مأخوذون بمحاولة نيل إعجاب أولئك الّذين لا يحبّوننا. تُظهر الدراسات على النفس البشريّة أنّ الانسان غالباً ما ينجذب إلى الّذين يتجاهلونه. علينا أن ندرك أنّ من المحال أن ننال حبّ الجميع، وحسبي أنّ ذلك ليس مرغوباً أصلاً: أتتخيّل نفسكَ محبوباً من الناس كلّهم؟ أتتخيّل حجم المسؤوليّة والضغط والتعب النفسيّ، والخوف

العظيم من خسارة ذرّة واحدة من ذلك الحبّ؟ مثلما ستجد دائماً أناساً يحبّونكَ، ستقع أيضاً على آخرين سيكرهونكَ، لسبب ولغير سبب.

– ما العمل مع هؤلاء؟

– تدير ظهركَ لهم.

– هكذا بكلّ بساطة؟

– هكذا بكلّ بساطة، نعم. تبتعد عن مبغضيكَ وحاسديكَ، وتعاشر أولئك الّذين يغذّون روحكَ ويلهمونكَ ويبثّون فيكَ الأمان والثقة والأمل.

– الحكي أسهل من الفعل.

– لم أقل إنّ التنفيذ سهل. الأمر يحتاج إلى تمرين طويل، إلى حصانة من سموم المبغضين، إلى مناعة لا تنمو ولا تترسّخ إلّا بالتجارب.

– ولكن ألم تقولي سابقاً إنّه لا بدّ من الإصغاء إلى الآراء كلّها على اختلافها، حتّى تلك الّتي تتعارض مع آرائنا وتناقضها؟

– لا أزال على رأيي، فلا بدّ من الأخذ والردّ والإصغاء إلى الانتقادات البنّاءة، لكنّها مختلفة تمام الاختلاف عن كلام الكارهين ونقدهم الهدّام الّذي لا يهدف إلّا إلى تحطيمنا وتدميرنا وشلّ دفاعاتنا.

– كيف نعي الفرق بين الاثنين؟

– من خلال أثر هذا النقد فينا. إذا ترك النقد فينا رغبةً في التحسّن والتقدّم بعد لسعته الأولى، إذا حثّنا على تطوير ذواتنا بعد الطعنة الحادّة الّتي سدّدها في صدر غرورنا، فهو نقد بنّاء وإيجابي ومفيد. أمّا إذا أغرقَنا هذا النقد في وحول اليأس والاستسلام واحتقار الذات، إذا حطّمنا وشلّ قدرتنا على النهوض والكفاح، فهو حكماً نقد هدّام ومؤذٍ وسلبيّ.

– ولكن أليس هذا الأثر نسبيّاً؟ ألا يختلف بين شخص وآخر، بحسب قدرات الناس على تقبّل النقد وتحويله إلى طاقة محفّزة؟ ثمّة مّن لا يحتمل النقد البتّة.

– لا، أبداً. كلّ شخصٍ قادر على قبول نقدٍ بنّاء، شرط أن يترافق مع الودّ والتعاطف، شرط أن تكون النيّة الّتي خلفه طيّبةً صادقةً مشجِّعة. كلّ شخص قادر على تطوير نفسه متى كان مُحاطاً بأشخاصٍ يدعمونه ولا يكفّون عن تقديم الثناء على التقدّم الّذي يُحرزه وإنْ كان تقدّماً ضئيلاً. أمّا الشخص المُحاط بأفراد يشيرون حصراً، وبقسوة وفظاظة، إلى عيوبه وتقصيره، فلا مفرّ من أن ييأس.

– ولكن أليس الحبّ الّذي لا يرحم ولا يخفي العيوب ولا يكذب، حبّاً أيضاً؟

– لا يمكن الحبّ أن يكون سلبيّاً ولا قاسياً ولا مجحفاً. الحبّ لا يسخر ولا يتنمّر ولا يؤذي. هكذا هو الإنسان الإنسانويّ: لا يهزأ ولا يتعالى على الآخرين في سقطاتهم، بل يمدّ إليهم يد العون ويؤازرهم.

– يا لكِ مثاليّة! هذا العالم الّذي تصفينه ليس موجوداً إلّا في خيالكِ. مثله ذلك الإنسان الإنسانويّ الّذي تدعين إليه.

– أنتَ على خطأ. هناك أناس كُثُر من هذه الطينة، ويحلمون بعالمٍ كهذا العالم. يتطلّب الأمر فقط أن يجتنب الواحد منّا الغوص في وحولِ العنف والقسوة والاحتقار، وأن يتقبّل عيوبه وعيوب الآخرين.

– أفهم من كلامكِ هذا أنّكِ تتقبّلين عيوبكِ وتعتزّين بها؟

– ربّما لا أتقبّلها تماماً، وأنا طبعاً لا «أعتزّ» بها. لكنّ الأكيد أنّني أفضّل التعايش معها على أن تدهسني شاحنة!

وصيّة أفلاطون

هم أو أنا

هل يسأل طائر النورس نفسه:
«ترى سيحبّ البحرُ عويلي؟»
هل يحاول الفهد إخفاء رقطه؟
هل يخجل البركان من حممه؟

هي ببساطة تقول: «أنا»،
فيشعّ نقصانها
مهيباً، قويّاً وبِكراً:
برهان جمالٍ لا يحتاج الى برهان.

رحلة المتمرّد

(هو الشجاع اللاممتثِل اللامساوِم)

«الإحساس بالخطر يجب ألّا يختفي؛
الطريق قصيرة، لكنّها وعرة
مهما بدتْ لكَ سهلة من هنا؛
ماطِلْ ما شئت، ولكن سيكون عليك
أن تقفز.»

و. ه. أودن

القصّة

الفعل المحرَّم

«قمْ كلّ يوم بعملٍ واحد تخافه.»
كورت فونيغت

الجنس في عالمي فعلٌ «محرّم».

لا يحقّ للنساء أن يمارسنه إلّا متى امتلكن الترخيص المناسب، ألا وهو عقد الـزواج، أو ثمن إجـراء عمليّة رتق غشاء البكارة لدى الطبيب النسائيّ؛ أو بالسرّ؛ أو إذا كنّ مطلّقات. فالمرأة المطلّقة لا تحمل عبء الطهارة والعذريّة.

أذكر أنّني عندما كنتُ مراهقة، لم أكن لأجرؤ حتى على ذكر الكلمة، فكيف بالأحرى مناقشتها؟ لم أكن لأحلم بتوعية جنسيّة، لا من والديَّ ولا من مدرستي. جلّ ما حظيتُ به، شأني شأن الكثيرين والكثيرات غيري، هو مجرّد درس مملّ في البيولوجيا، عن التناسل.

كان الجنس في عالمي، ولا يزال، مرادفاً للعيب، خصوصاً في ما يتعلّق بالنساء.

كيف اكتشفناه إذاً، نحن الفتيات؟ كلٌّ منّا اكتشفتْه بوتيرتها، بتجميعها معلومات مشرذمة من هنا وهناك. كان الأمر كأنّه أحجية

أو لغز يجب تجميع عناصره لفهمه: مشهد من فيلم هنا، حديث بين الجارات هناك، أو لعبة الطبيب والمرضى الّتي كنّا نلعبها أحياناً، أو اعترافات اللواتي كنّ أكثر جرأةً مع الجنس الآخر - وكنّا نسمّيهنّ خلف ظهورهنّ «فاجرات». مثّل لنا الأمر معضلة مربكة، فأمور كثيرة لم نكن نعرفها ولم نجد مَن يشرحها لنا، وكلمات كثيرة لم نكن نفهمها، كمثل الواقي والانتصاب والنشوة...

أمّا أنا فكنتُ أتمتّع بامتياز إضافيّ، لقد كان لديَّ مصدر معرفة خاصّ، أعظم من الإنترنت وأكثر إفادة من الـ«يوبورن» من دون أدنى شكّ. كانت هناك مكتبة جميلة وافرة تحت تصرّفي في البيت.

لقد شغفتُ بالقراءة منذ صغري، ولطالما سُرَّ والدايَ أيّما سرور لرؤيتهما كتاباً بين يديَّ، فكانا يدعانني وشأني لساعات أو لأيّام حتّى. لم يرتابا يوماً في نوعيّة المؤلفات الّتي كنتُ أقرأها، فلم يعلما مثلاً ما الكتاب الّذي كنتُ منكبّة عليه في ذلك الصيف من عام 1983، والّذي كنتُ أخبّئه داخل الجزء الأوّل من «البحث عن الوقت الضائع» لمارسيل بروست. كان والدي يسألني بمحبّة ولطف: «ألم تنتهي من قراءة هذا الكتاب بعد؟ منذ ثلاثة أشهر أراكِ ممسكة به!».

- بلى، أنهيتُ قراءته لكنّني أعيد قراءته لأنّه رائع فعلاً!

- أحسنتِ!

نعم، أحسنتُ فعلاً، على ما أكّدتْ لي مدام دو سانت أنج من بين صفحات كتاب «الفلسفة في المخدع» للماركيز دو ساد، الكتاب القنبلة الّذي كان فعلياً بين يديَّ يومذاك، والّذي كان في إمكاني أن أتلوه عن ظهر قلب لفرط ما أعدتُ قراءته.

***

المعلّمون الفعليّون الّذين عرفتُهم في حياتي والّذين أرشدوني في عالم الجنس كانوا جميعهم كتّاباً: أنابيس نين علّمتني كيف يمكن العشيق بلوغي «من طريق القبلات والمخيّلة». بابلو نيرودا همس في أذني كيف يجب أن أمارس الحبّ «من دون أن تعرفي لا متى ولا أين ولا كيف. ببساطة، من دون تعقيدات ولا تكبّر». اكتشفتُ مع مارغريت دوراس أنّ جسدي يمكن أن يكون آكِل بشر: «كم أودّ أن يلتهمني ثدياكِ». جورجي أمادو حدَّثني عن الطريقة الّتي يجب أن أؤخذ بها، كأنّني «برعم مغلق يتفتّح ويزهر بعد كلّ ليلة لذّة». هنري ميلر وصف لي الشغف قائلاً: «ها أنذا، خذيني أو اطْعَنيني حتّى الموت. اطْعَني القلب، اطْعَني الدماغ، اطْعَني الرئتين، اطْعَني الكليتين، اطْعَني الأحشاء، اطْعَني العينين والأذنين. إذا بقي عضوٌ واحد منّي على قيد الحياة فإنّه محكوم عليكِ بأن تكوني لي إلى الأبد، في هذا العالم وفي كلّ العوالم الأخرى الآتية». لا أنسى فرانسواز ساغان، وجيمس سالتر، وبولين رياج، وميلان كونديرا، وجاين أوستن، وصولاً طبعاً الى قصص «ألف ليلة وليلة» وتفاصيلها الماجنة.

في وسعي أن أكمل التعداد إلى ما لا نهاية: هؤلاء علّموني كيف أقبّل، كيف أعانق، كيف ألمس، كيف أمنح اللذّة وكيف أشرّع نفسي لها. لقد أحدثوا الشرارة الأولى في جسدي، أيقظوا حواسّي وأثاروها، وأشعلوا نيران رغباتي وأطلقوا لها العنان. كلماتهم جعلَت حلمتيَّ تتأهّبان ودمي يفور، وأشعلَت الحرائق بين فخذيَّ. وكلّما تأجّجَت ناري، ازداد عطشي، فكنتُ كاللهيب الّذي يحدّق في بئر لا قاع لها، يرى الماء ولا يطاله، يسمع الخرير ولا يلمس مصدره، يرى انعكاسه على الصفحة الصافية ولا يستطيع بلوغه.

هؤلاء الكتّاب جميعهم كانوا ينتظرونني في مكتبة والدي، بصبر مَن يعرف أنّ اجتنابه مستحيل. ينتظرونني على الرفوف العليا،

وراء مجلّدات وموسوعات بعناوين مملّة هدفها ثني عن النبش. تالياً، كان والدي المحافظ، بمعنى ما، مشاركاً في «الجريمة» من دون علمٍ منه.

***

هكذا إذاً، تعلّمتُ كلّ شيء تقريباً عن الجنس من الأدب العالميّ الخالد، من تلك الكتب الباهرة ومؤلّفيها. ولكن جاء اليوم الّذي لم يعد يكفيني فيه أن أقرأ. جاء اليوم الّذي استيقظت فيه جينات الكاتبة فيَّ، بعدما دغدغتْها قراءاتي تلك. شعرتُ بأنّ الوقت قد حان لأكتب بدوري عن الجنس. كان التحدّي عظيماً ولكن ضرورياً. كان عليَّ أن أقفز، وكان اندفاعي أعظم من خوفي، لفرط ما سئمتُ التابوهات الكثيرة المتزايدة الّتي كنتُ أعيش في ظلّها.

هنا لا بدّ من أن أشير إلى أمر بالغ الأهمّية: اللغة العربيّة من أغنى اللغات من حيث المفردات والتعابير الخاصّة بالجسد والجنس والإيروتيكا الّتي تحويها. لكنّ المشكلة تكمن في أنّ ندرة نادرة تجرؤ على استخدام تلك المفردات والتعابير، ما جعل الجزء الأعظم من المعجم الجنسيّ محصوراً في نطاق السباب والشتيمة.

لماذا؟ لأن ثقافتنا، وإنْ من دون تعميم، أصيبت بلعنة الجبن ووباء الخبث وفيروس الازدواجيّة ومرض النفاق. ثقافة «مخصيّة»، غالبيّة أهلها نعامات مصمّمة على دفن رؤوسها في الرمال. وهل أكثر من الرمال عندنا؟

من أسماء القضيب الكثيرة في اللغة العربيّة، هناك «النعّاس». في المرّة الأولى التي وقعتُ فيها على هذا الاسم، فكّرتُ: هذا هو تماماً ما تعاني منه لغتنا العربيّة: تعاني من قضيبٍ ناعس.

***

ربما تسبّب لي تمرّدي بمشكلات كثيرة على مرّ السنوات، لكنّه الشعلة الّتي تضيء طريقي، وأعلم في قرارة نفسي أنّه يستحقّ كلّ المشقّات الّتي أتكبّدها. أمّا الكتب، فهي كانت، ولمّا تزل، حليفتي الأولى: هي الّتي فتحتْ عينيَّ وحضّتني على اختيار الطريق الشائك. من هنا الخطر الّذي تمثّله الثقافة والتعليم بالنسبة إلى مجرمين ظلاميّين ومتخلّفين أمثال داعش وطالبان، فالرغبة في التعلّم تهديد، لأنها تحضّ على الجرأة والتمرّد.

شكراً بابا.

المَقصِد
دغل

«الجائزة لن تُهدى إليكَ؛ ينبغي لكَ الفوز بها.»
رالف والدو إمرسون

العالم الإنسانويّ دغل.

دغلٌ كثيفُ الطبيعة منيعُها، برّيٌّ محفوفٌ بالأخطار. من بعيد، ترين أشجاراً عملاقة محصّنة بظلالها المهيبة؛ تسمعين زئير أسدٍ تارةً، وطوراً فحيح أفعى، كأنّهما يحذّرانكِ من ولوجه.

***

العالم الإنسانويّ دغل، وأنتِ لستِ إنديانا جونز، لكنّكِ مضطرّة لاجتيازه لأنّكِ موعودة بجنّةٍ بعده، بأرضٍ قادرة على احتضان أحلامكِ ورغباتكِ الأكثر جنوناً. ما إن تقتربين قليلاً حتى ترَي أجماتٍ شائكةً من هنا، وأناكوندا مميتة من هناك، إلى أن تقرّري أنّ أفضل شيء يمكنكِ القيام به هو أن تبتعدي، وأن تجدي لنفسكِ طريقاً أخرى لتصلي إلى حيث تريدين الوصول. ربّما من الأفضل أن تلتفّي حول الدغل بدلاً من عبوره، أو أن تحلّقي من فوقه، أو حتّى أن تحفري لكِ ممرّاً من تحته.

سرعان ما يتضح لكِ أنّ الالتفاف حول الدغل مستحيل، فهو يحتلّ كلّ المساحة أمامكِ من الشرق إلى الغرب، كأنّه يمتدّ على عرض الكرة الأرضيّة؛ كأنّه حزام عنيد بينكِ وبين المكان الّذي تريدين بلوغه. تروحين تتذكّرين دروس الجغرافيا، مستغربةً كيف أنّها لم تتناول هذا الدغل ولم تصفه.

في مرحلة ثانية، يتجلّى لكِ أنّ التحليق فوق الدغل مستحيل أيضاً. فمهما كان الارتفاع الّذي ستبلغه طائرتكِ، فلن يكفي لتجتازي الأشجار والنباتات الشاهقة الّتي تطوّقه. الطائرة ستعلق بين الأغصان لا محالة، فضلاً عن الطيور الضخمة الّتي تحلّق في سمائه، والقادرة بضربة واحدة من أجنحتها على أن تُسقطكِ شرّ إسقاط.

يبقى لكِ أن تحاولي حفر نفق تحت الدغل، لكنّه يبدو احتمالاً مستحيلاً هو الآخر، فأرضه ليست ترابيّة مثلما كنت تتوهّمين، بل صلبة قاسية لا تشقّقات فيها ولا مسامّ. تتساءلين بحيرة واستغراب: «كيف لأيّ شيء أن ينمو في أرض كهذه؟ كيف للجذور أن تتمدّد وللدود أن يصنع أنفاقه؟».

ولكن لا بدّ لكِ من اجتياز الدغل. لا بدّ.

كثرٌ يحاولون إقناعكِ بالعدول. ينصحونكِ بالتروّي والامتناع عن اتّخاذ أيّ خطوة، يحاولون ثنيكِ عن مخطّطكِ، ويعملون على تقويض عزمكِ. يحذّرونكِ: «لا مصلحة لكِ في الذهاب إلى هناك». تفكّرين لهنيهة في التراجع عن قراركِ، لكنّكِ لا تحبّين الخضوع للآخرين والانصياع لآرائهم وأحكامهم، مثلما لا تحبّين أن تتراجعي. تتذكّرين الجنّة الموعودة الّتي تعتقدين أنّها تنتظركِ خلف هذا الدغل المخيف؛ تتذكّرين المرأة الّتي تريدين أن تكونيها والّتي قيل لكِ إنّها تعيش هناك، في انتظاركِ.

بعد أخذ وردّ وكرّ وفرّ، تعزمين على اجتياز الدغل سيراً على الأقدام، رغم كلّ المصاعب المتوقّعة.

***

تبدئين بتوضيب ضرورات الرحلة، من سكّين حادّ وبوصلة وعدّة الإسعافات الأوّليّة وما يسهّل عليكِ إشعال نار. تفكّرين في كلّ شيء، وتجرين استقصاءاتكِ لمعرفة طبيعة المناخ داخل الدغل. تحسبين الوقت التقريبيّ الّذي ستحتاجين إليه لاجتيازه، وتنطلقين.

ولكن يبدأ الندم يتأكّلكِ بعد الخطوة الأولى داخله: «كان ينبغي لي أن أنصت إلى الناصحين. كان ينبغي لي أن أبقى حيث كنتُ. لم يكن وضعي سيّئاً إلى هذا الحدّ. ما لي وللجنّة؟ وما الضمان أنّها موجودة أصلاً؟». تستديرين لتعودي أدراجكِ لكنّكِ تكتشفين أنّكِ بتّ عالقة: لقد حاصركِ الدغل والتفّ حولكِ ولم يعد في إمكانكِ أن تتراجعي.

فجأةً، يطوّقكِ أيضاً قطيع من الذئاب الهائجة. تعوي وتعوي ولا تنفكّ تضيّق حلقتها حولكِ.

ما العمل؟

تعمدين بدايةً إلى استجداء شفقتها، فتقولين لها بصوت مرتجف: «أرجوكِ لا تؤذيني. أنا مجرّد امرأة حمقاء. سأنفّذ كلّ ما تطلبينه منّي، لكن أرجوكِ دعيني بسلام». لكنّ هذا التكتيك لا ينجح، بل على العكس، بدلاً من أن يهدّئ كلامكِ الذئاب يجعلها أكثر حدّةً وهيجاناً وغضباً واستعداداً لتمزيقكِ إرباً إرباً.

تغيّرين استراتيجيّة تعاطيكِ معها. ربّما لم تكن إثارة شفقتها فكرة جيّدة، فتقرّرين اعتماد الرشوة. تقولين لها: «إذا تركتِني وشأني فسأعطيكِ في المقابل هذا السكّين الرائع». لكنّكِ لا تكادين تُنهين جملتكِ حتّى تدركي مدى سخافتها: لماذا تحتاج الذئاب إلى سكّينكِ

البدائيّ هذا، ما دامت لها أنيابها الحادّة والمسنّنة؟ لا شيء تملكينه قد يثير اهتمامها، لا شيء قد يقيكِ شرّها. لكنّكِ تقدّمين إليها السكّين في أيّ حال، وكلّ ما تحملينه معكِ، بلا جدوى. تظلّ على غضبها ويزداد عواؤها شراسة.

تخطر في بالكِ من ثمّ فكرة تهديدها، فتقولين لها بكلّ ما أوتيتِ من حزم وصرامة: «أعرف أشخاصاً كثراً مهمّين، ولو كنتُ مكانكِ لما خاطرتُ بالتعرّض لشخص مثلي». لكنّها تقابل كلامكِ هذا بسخرية وهزء، فتتمنّين لو أنّكِ لم تتلفّظي بهذه الكلمات أصلاً.

تحاولين تالياً عقد صفقة معها، ومفاوضتها بكلّ ما تتمتّعين به من حنكة: «اعفي عنّي وأعدكِ بأنّك لن تندمي. سأكون حليفتكِ المخلصة ويمكننا أن نغزو ما وراء حدود الدغل معاً». لكنّكِ تتوقّفين عن الكلام عندما تكتشفين أن عرضكِ هذا إنّما يثير غضبها أكثر فأكثر. عواؤها يعلو ويشتدّ، وتشعرين بفرائصكِ ترتعد. من الواضح أنّ هذه الذئاب تحتقركِ ولا توليكِ أدنى اعتبار.

في نهاية المطاف، تجدين نفسكِ قد استنفدتِ الحيل كلّها، لكنّكِ لا تستسلمين. لن تدعي قطيع الذئاب هذا يُفسد عليكِ مغامرتكِ. لا يبقى أمامكِ سوى مواجهتها. أجل، ستواجهين هذه الوحوش اللعينة وإنْ أدّى ذلك إلى خسارتكِ كلّ شيء، بما فيه حياتكِ. تستجمعين قواكِ وتصرخين بأعلى صوتكِ: «لا!». تتمرّدين، تعترضين، تغضبين، وتعوين، نعم تعوين بدوركِ في وجه الذئاب: «من حقّي أن أعبر هذا الدغل وسأعبره شئتِ أو أبيتِ. لن تستطيعي إيقافي أو منعي!».

يا للمفاجأة! يُسكِت صراخكِ الذئابَ واحداً تلو آخر، وترين للمرّة الأولى لمعة احترام في عيونها. ها هي تهدأ وتتراصّ مفسحةً لكِ مكاناً بينها، كأنّها تدعوكِ لتكوني واحدةً منها. لكنّكِ لا تريدين أن

تكوني عضوةً في قطيع، لا في هذا ولا في سواه. تشكرينها وتمضين في طريقكِ.

وحدكِ تتسلّقين أشجار الدغل العملاقة، وحدكِ تتراقصين مع أفاعيه الماكرة، وحدكِ تركضين على ضفاف أنهاره الهائجة. تتخلّصين أخيراً من الخوف الّذي كان يكبّلكِ مثلما يكبّل عاشقٌ غيور حبيبته. تتحرّرين، تنطلقين، وتنصهرين مع الروح الأبيّة الّتي أردتِ دائماً أن تكونيها. الأهمّ من هذا كلّه، تكتشفين أن لا شيء بعد الدغل، لا جنّة، لا امرأة، ولا وجهة.

تكتشفين أنّ الدغل هو مقصدكِ، وهو الرحلة.

تكتشفين أنّ الدغل هو أنتِ.

المُحاوَرة

لِمَ التمرّد؟

«وحدهم أولئكَ الّذين يجازفون بالذهاب
بعيداً يكتشفون أين يمكن المرء أن يصل.»
تي. إس. إليوت

أنا: لماذا تحضّني باستمرار على الامتثال؟

الوسواس: أففف! هل من الضروريّ أن يكون هناك دافعٌ وراء كلّ شيء؟

– طبعاً، خصوصاً وراء فرض الطاعة.

– حسناً، ليكنْ. أريدكِ أن تحترمي الحدود وإلّا تعذّر ضبطكِ.

– فلنفترض أنّ هذا ما قد يحصل. ما العيب في ذلك؟

– أنتِ والبشر جميعاً في حاجة الى ضوابط، وإلّا...

– وإلّا ماذا؟

– وإلّا فلن يعود هناك ما يمنع الناس من القتل مثلاً.

– لنتأمّلْ معاً يا صديقي هذا العالم الّذي نعيش فيه: ألا ترى أنّ الأشخاص «المنضبطين»، كما تسمّيهم، المطيعين الأوامر طاعةً عمياء، هم تحديداً مَن يقتل، اليوم، ويذبح ويؤذي؟ ثمّ، ما الّذي

يؤكّد لكَ أنّ مَن يضع القيود والحدود والضوابط صاحب حقّ وقيم، ولا يختار الأفضل له على حساب أتباعه وحياتهم؟ ما الّذي يؤكّد لكَ أنّه لا يستغلّ «انضباط» الجماعات ليقولبها ويمارس سلطته عليها ويسيّرها وفق أهوائه ورغباته ومصالحه؟

– قولي ما تشائين، لن أنجرّ إلى هذا النقاش الفارغ.

– أيكون السبب لأنّكَ لا تملك أيّ إجابة عن أسئلتي؟

– بل أنا على العكس أملك الإجابة القاطعة، وهي عبارة مؤلّفة من كلمتين: التابوهات ضروريّة.

– قد تكون التابوهات ضروريّة فعلاً، لكن لأسباب تختلف تمام الاختلاف عن الأسباب الّتي تقنعكَ. هي ضروريّة لأنّها المحرّك الأوّل لفضولنا، لأنّها المحفّز الأساسيّ لنتخطّى أنفسنا، لنتحدّاها ونتجاوزها وننتصر عليها. التابوهات ضروريّة ما دامت قابلة للكسر والهدم والانتهاك.

– كلّ التابوهات قابلة للانتهاك متى كنتِ مستعدّة لتحمّل عواقب انتهاكها.

– دعني إذاً أصُغْ جملتي بطريقة مختلفة: التابوهات ضروريّة ما دامت قابلة للانتهاك من دون عقاب.

– هل أفهم من كلامكِ هذا أنّكِ تنادين بعالم بلا ضوابط ولا قيود؟ عالم يعجّ بالمعاصي والدناءات، ويكون فيه الاغتصاب، مثلاً، مشروعاً، ومثله الاعتداء الجنسيّ على الأطفال؟

– أوّلاً، الاغتصاب والاعتداء الجنسيّ على الأطفال هما من الجرائم لا من التابوهات، فلا تدع الأمور تختلط عليك. ثانياً، العالم الّذي أنادي به هو عالم خالٍ من الضوابط الزائفة، المصطنعة، السطحيّة، ومن القيود السخيفة والمنافية للمنطق. العالم الّذي أنادي به لا يعترف بسوى ضوابط تضعها إنسانويّتنا وعقولنا. الإنسان ليس

كائناً وضيعاً، وليست وحدها بضع وصايا ما يكبح جماحه ويحول دون ارتكابه الشرور. إذا كانت الضوابط الدينية هي الّتي تمنع الاعتداء الجنسيّ على القاصرين، فقلْ لي لماذا هناك عدد هائل من الكهنة الّذين يعتدون على الأطفال، أو من المسلمين البالغين الّذين يتزوّجون بقاصرات؟ أليس زواج القاصرات اعتداءً جنسيّاً على الأطفال بامتياز؟ وإذا كان الدين هو الّذي يحرّم الاغتصاب، فقل لي لماذا يغتصب بنو داعش النساء في شكل ممنهج؟ وماذا عن جهاد النكاح؟ أليس هذا شكلاً من أشكال الاغتصاب «الطوعيّ» الّذي يبرّره الدين ويباركه؟ القوانين ضروريّة من دون شك، ولكن لا بدّ من أن تنصّها إنسانويّتنا. الأخلاقيّات في عالمنا باتت استنسابيّة، بناءً على ما تعتبره كلّ فئة سلوكاً فاضلاً بسبب اقتناعاتها الذاتيّة، بينما ينبغي للأخلاقيّات أن تكون شاملة وكونيّة.

– مفهوم الفضيلة شامل وكونيّ.

– أمتأكّد أنتَ؟ فلننظرْ قليلاً ناحية بلادٍ اسمها المملكة العربيّة السعوديّة، ولنتوقّفْ عند بعض ما يعتبره أهل تلك البلاد فضيلة: ألّا تقود المرأة سيّارة. ألّا تخرج من البيت بلا «محرم». ألّا تكون قوّامةً على شؤونها. هل تجد على وجه هذه الكرة الأرضيّة قوانين أكثر اعتباطيّة وأكثر جوراً وأكثر سخافةً من هذه القوانين؟ أهذه هي الفضيلة الّتي تمجّدها؟ أهذه هي الأخلاقيّات السطحيّة الّتي تنادي بها؟

– حسناً، أوافقكِ على هذه النقطة. ولكن على أيّ قيم ينبغي لنا أن نربّي أولادنا؟

– لنعلّمْهم أولاً وخصوصاً القاعدة الذهبيّة الّتي هي أساس كلّ ما بقي: «عامل الآخرين مثلما تودّ أن تُعامَل». لنعلّمْهم حبّ الآخرين، حبّ فعل الخير، حبّ العطاء والإحسان، ولنبعثْ فيهم بذور التكاتف والاحترام والتسامح عوضاً من البغض والحقد والحسد.

– ما تقولينه ينطبق على جوهر الدين، فهذه القيم هي نفسها القيم الدينيّة.

– قد تكون كذلك، إذا ما غضضنا الطرف عن الفجوة الهائلة بين التنظير والتطبيقات الّتي يجري العمل بها في أرض الواقع. من ناحية أخرى، ربّما ينطبق ما أدعو إليه على الأديان، لكنّه ليس حكراً عليها، بل قل العكس، لقد سبقت هذه المفاهيم والقيم وجود الأديان، الّتي جاءت وتبنّتها ونسبتها إلى نفسها.

– الله هو الّذي أوجد الأخلاق على الأرض.

– هذا ادّعاء خاطئ. نعم، لقد كان هناك أشرار قبل اختراع مفهوم محدَّد عن الله، ولكن كان هناك أخيار أيضاً. كان هناك أناس مُستَغَلّون، يباعون ويُشترَون، وكان هناك رقّ وعبوديّة، وحكّام طغاة مستبدّون، ولكن كان هناك أيضاً أولئك الّذين يشاركون الفقراء خبزهم، ويمدّون يد العون إلى المحتاج، تماماً كما هي حالنا اليوم. لم تقدّم الأديان ولم تؤخّر، على هذا المستوى، لا بل لعلّها أخّرت في رأيي، لأنّها استثنتْ من واجب المساعدة كلّ مَن لا ينضوي تحت لوائها.

– كأني بكِ تقولين إنه ينبغي لنا أن نتمرّد على كلّ القواعد والضوابط...

– ليس عليها كلّها بالضرورة، بل أقلّه على تلك الّتي لا تُقنعنا، أو تلك الّتي تمنعنا من اكتشاف العالم حولنا، أو تجعلنا نرتكب أعمالاً تتعارض مع إنسانيّتنا وكراماتنا. أحياناً متمرّد واحد يكفي لينقذ الجميع من الانسياق خلف عقيدة معيّنة. إنّه التوق إلى العدالة والمساواة. ألا نطمح جميعنا إلى العيش في عالم منصف، غير منحاز؟ عالم كهذا لن يبني نفسه بنفسه، لن يسقط على رؤوسنا ذات صباح من السماء. عالم كهذا نبنيه نحن، بتمرّدنا على الظلم والعنف. فلنحُلْ دون أن نكون مجرّد بيادق يحرّكها البعض كما يشاء.

– مَن البعض الّذين تقصدين؟

– هم أولئك الّذين يريدون جعلنا مجرّد آلات مطيعة. يتضافرون ليطمسوا غضبنا، ليُغمضوا عيوننا، ليسلبونا حسّ التحدّي، ليمحوا الأسئلة الّتي تراودنا، ليحولوا دون خوضنا التجارب والخروج باستنتاجات فرديّة، ليمنعونا من الاعتراض، من الاختلاف، من الانشقاق. هناك أهلٌ يفعلون ذلك بأولادهم، هناك مدرّسون يفعلون ذلك بطلّابهم، ورجال دين وزعماء سياسيّون بأتباعهم، إلخ. يتذرّعون بالتربية والتوجيه والإرشاد والتحذير والتوعية، لكنّهم فعليّاً يمارسون التلقين والبرمجة والترهيب، وهي من أعظم وسائل التجييش الجماعيّ، لأنّها تُثني عن التمرّد وتودي بنا إلى شلل فكريّ.

– ألستِ تبالغين؟ هل من الممكن فعلاً أن يكون كلّ مَن يحيط بنا متآمراً علينا وعلى استقلاليّتنا؟

– أؤثر المبالغة على الانقياد. أنا لم أقل الكلّ، لكن ثقْ بأنّ كلّ مَن هو أعلى منّا هرميّةً يتآمر علينا في شكل من الأشكال لخدمة مصالحه. القمع، كما تعلم، يأتي من فوق. فلنحذرْ مِمَّن هم فوق، ولنحمل الريبة حيالهم. قلّةٌ قليلة من أصحاب النفوذ تدعم تحرّرنا. من المهمّ ألّا نكفّ عن تحدّي قيودنا، ألّا نتعب من التمرّد على السلاسل المفروضة علينا، الّتي تكبّلنا، وإلّا...

– وإلّا ماذا؟

– وإلّا نكُنْ كَمَن يسير إلى المسلخ بسعادة وابتهاج لأنّهم أقنعوه بأن لا حيلة لديه، وبأنّ ما سيحصل مكتوبٌ ولا مفرّ منه، وبأنّ المسلخ هو الفردوس. لقد زاد عدد الخراف في عالمنا هذا، حتّى بات غير قابل للإحصاء. حتّى الرعاة المزعومون هم مجرّد خراف مطيعة في قطعانِ قادةٍ آخرين أعلى درجة منهم. الجميع يبجّل حسّ المسؤوليّة لكن لا أحد يجرؤ على تحمّل وزرها. الجميع يطالب بالحقوق لكن لا

أحد يريد أن يدفع أثمانها، كأنّ سرّ السعادة يكمن في أن يقبل المرء بعجزه، ويذعن.

– كيف يمكن تفادي المسلخ؟

– مجدّداً، بالتمرّد! بالتمرّد وحده يحيا الانسان. بالتمرّد على الآخرين وعلى الذات. ينبغي لنا أن نقفز. ما هَمّ إذا تهشّمَت عظامنا؟ ستكون لنا متعة أن نعيد تركيب أنفسنا وتأليفها من جديد.

– هل من نصيحة أخرى؟

– أن نعرّي أنفسنا من خوفها، يوماً بعد يوم، مرّةً تلوَ أخرى، طبقةً تلوَ طبقة. في كلّ مرّة نظنّ أنّنا اقتربنا من نواتنا الشجاعة، ستظهر طبقات خوف جديدة. لكن لا يمكن أن نستسلم. ممنوعٌ أن نستسلم. فلنخلعْ طبقات القلق والشكّ القاسية، الّتي نمَت معنا على مرّ السنين. ستؤلمنا أصابعنا من دون شك، قد نتعب ونملّ، لكنّها الطريقة الوحيدة للوصول إلى غايتنا السامية.

– وما تراها تكون، غايتنا السامية هذه؟

– الحرّيّة... حرّيّتنا يا صديقي.

– هذا توقٌ مستحيل.

– لعلّه مستحيل، لكنّ واجبنا أن نظلّ نحاول.

وصيّة أفلاطون

أن تُذعني أو أن تقاوِمي

الأمواج عاتية،

الطقس رديء،

ثمّة وحشٌ يدكّ بقرنَيه قاع السفينة.

لكنّ البحّارة لا يقلقون.

البحّارة،

ليست من خشبِ سفينتهم، ولا من معدن:

هي تلك الأرض البعيدة

الّتي يعرفون أنّها تنتظرهم،

وهي رحلتهم إليها.

مُحاوَرة الوداع

«نصف ما أقوله لكَ لا معنى له، غير أنّني
أقوله لعلّ النصف الآخر يبلغكَ.»
جبران خليل جبران

أنا: وا أسفاه!

الوسواس: علامَ الأسف؟ ما الأمر؟

– وقتي انتهى، بينما لا تزال هناك موضوعاتٌ كثيرة أرغبُ في مناقشتها معكَ.

– (متهكّماً) هل أنتِ أكيدة؟ من ناحيتي، أشعر بأنّكِ لم تتركي موضوعاً من «شرّ» عقلكِ ولسانكِ!

– هذا مستحيل. القضايا الجديرة بالتفكير والنقاش لا تُحصى ولا تُعدّ.

– أكمِلي إذاً. ألم تقولي إنّنا نحن الّذين نقرّر حدودنا بأنفسنا؟ ما الّذي يمنعكِ؟

– أنا في حاجة إلى استراحة منكَ. وأنتَ، خصوصاً، في حاجة إلى استراحة منّي.

– (ممعناً في التهكّم) صحّ النوم!
– اتّفقنا على أن تعدل عن السخرية.
– إلّا عندما أمارسها على نفسي. وأنا أنتِ، إنْ كنت نسيتِ ذلك.
– معكَ حقّ.
– هلّا أعطيتِني في الأقلّ لمحةً عن الموضوعات الأخرى الّتي لم تتطرّقي إليها؟
– حسناً، في المقام الأوّل، هناك أهمّية الاستقلاليّة المادّية.
– لقد ذكرتِ ذلك.
– الذِكْر ليس كافياً. من الحيويّ لنا جميعاً أن نعتمد على أنفسنا اقتصاديّاً. المال يمكنه أن يكون أداة قمع وابتزاز، خصوصاً ضدّ النساء والأقلّيات المستضعَفة.
– ولكن هل في مقدور أيٍّ كان أن يصير مستقلّاً مادّياً مئة في المئة؟ يبدو لي ذلك طريقاً بلا خطّ وصول. حتى المليونير نجده خاضعاً للملياردير.
– لا أتكلّم على هؤلاء. لا أتكلّم على الجشع. أعني بالاستقلالية المادّية عتبة الاكتفاء: أي أن نكون قادرين على إشباع حاجاتنا الأساسيّة بأنفسنا. لن يحمينا ذلك فحسب من «السجّانين» الّذين يكمنون لنا، بل سيعزّز ثقتنا بأنفسنا أيضاً.
– حسناً. وصلت الفكرة. ماذا بعد؟
– طريقة تربية الأهل لأولادهم.
– لقد عالجتِ هذه النقطة أيضاً!
– صحيح، ولكن لا تستطيع أن تتخيّل كم من الأهل يكرّرون الأخطاء التربويّة نفسها الّتي كانت سبباً في معاناتهم عندما كانوا هم صغاراً. مأساة غالبيّة الأهل أنّهم ينسون أو يتناسون طفولتهم ومراهقتهم. كانوا يكرهون تعرّضهم للتخضيع، لكنّهم الآن يخضّعون

أولادهم. كانوا يكرهون عدم تمتّعهم بأيّ حرّية أو خصوصيّة، لكنّهم الآن يحرمون أولادهم من هذا الحدّ الأدنى من الحرّية أو الخصوصيّة. كانوا يكرهون إجبارهم على الامتثال للأوامر من دون شرح مقنع، لكنّهم الآن يتوقّعون من أولادهم الامتثال لأوامرهم من دون توفير شرح مقنع لهم في المقابل. كانوا يكرهون اضطرارهم لفعل أمور كثيرة في الخفاء، وعجزهم عن ائتمان أهلهم على بعض أبسط أسرارهم، لكنّهم الآن لا يشجّعون أولادهم على الانفتاح والشفافيّة والثقة. تربية الأولاد من أشدّ أدوات التغيير الإيجابيّ فاعليّةً الّتي نملكها: أي حثّهم على التعلّم؛ على مساءلة كلّ شيء (حتى ما نقوله)؛ على الفضول؛ على التفكير؛ على التشكيك والاختيار والحلم والتطوّر والاعتماد على أنفسهم. من المهمّ أيضاً ألّا ينشّئ الأهل بناتهم بطريقة مختلفة عن أبنائهم. مهما تقدّمت القوانين في بلدٍ ما، لا تتغيّر الأنماط البطريركيّة حقّاً إلّا إذا حدث هذا التحوّل داخل البيوت أوّلاً.

– ولكن قد يخشى الأهل، إذا هم فعلوا ذلك كلّه، أن تخرج الأمور عن سيطرتهم...

– أعلم أنّ الأمر ينطوي على مخاطرة، ولكن من الحيويّ أن نمنح أولادنا هذا الدفع الإضافيّ في مرحلة مبكرة من حياتهم. يشبه ذلك تمكينهم من بدء سباقٍ ما في موقعٍ متقدّم من خطّ الانطلاق.

– أوكي. هل من شيءٍ آخر تشعرين بأنّه ناقص؟

– بل أشياء: بدايةً، تلك البشعة، مثل استغلال الأطفال (التزويج المبكر، البيدوفيليا، سفاح القربى، الختان، إلخ.)؛ التمييز ضدّ المثليّين؛ النسبيّات الثقافيّة المزعومة الّتي يراد منها تقويض شموليّة حقوق الإنسان. ولكن هناك موضوعات جميلة ناقصة أيضاً: كمزايا المحافظة على موقف إيجابيّ من الحياة؛ ضرورة البحث المستمرّ عن شغفنا؛ غِنى فلسفة الـ«كارما»؛ روعة أن نحِبّ وأن

نحَبّ؛ قدرات طاقتنا الإيروتيكيّة... كم كان بودّي أيضاً التطرّق إلى العلمانيّة والموت الرحيم والإجهاض والبغاء وسواها من المسائل المثيرة للجدل في مجتمعاتنا وثقافاتنا. لكنّ أكثر ما يقلقني هو أنّني لم أركّز بما يكفي على أهمّية الوعي.

– أتمزحين؟ تلك الكلمة ترد 37 مرّة في هذا الكتاب! ماذا بقي للقول عنها؟

– العقل الواعي هو الركن، ركننا. كلّ شيء يبدأ منه ويفضي إليه. بفضل الوعي ندرك خياراتنا، ونحوّل ردود فعلنا أفعالاً، ونحرّر عقولنا من الأنماط والتعميمات. بفضل الوعي نعمّق رؤيتنا ونستكشف لاوعينا. بفضل الوعي نسأل أنفسنا: مَنْ/ماذا نريد أن نكون؛ وبفضله نصير تلك النسخة الفضلى منّا. وعينا هو مصفاتنا. وعينا هو...

– (مقاطِعاً) صاروا 43 مرّة!

– (مقهقِهةً) يا لكَ من مزعج!

– بل أنتِ المزعجة الحقيقيّة. ولكن بما أنّ الكتاب قد انتهى الآن، لديَّ ما أقوله لكِ.

– تفضّل.

– بدا لي أنّ مفهومكِ عن «الإنسان الإنسانويّ» هو ثمرة تأمّلاتكِ في تجاربكِ الخاصّة. شعرتُ أكثر من مرّة بأنّكِ كنتِ تحلّلين ذاتكِ نفسيّاً.

– لعلّي كنتُ أفعل ذلك حقاً. من معاني الكتابة عندي سبر أغواري.

– ولكن ليس واضحاً ما إن كنتِ تجسّدين المفهوم – كنقطة انطلاق متحرّرة منكِ – بقصّة مستلّة من حياتكِ، أو إن كان المفهوم هو حصيلة تجاربكِ ككلّ، أي خطّ وصولٍ يتماهى معكِ.

– حسبي أنّني كنتُ أمشي في الاتّجاهين. صدقاً، لا أستطيع أن أميّز النبع من المصبّ.

– ولكن، هذا الأمر، ألا يجعل الكتاب، كتابكِ أنتِ، أي نسخة «كاملة» منكِ، بدلاً من أن يكون كتاب «الإنسان الإنسانويّ» عموماً؟

– بدايةً، كلّ الكتب هي كتب مؤلّفيها، مهما بدت «شاملة» أو غير شخصيّة. في المقابل، مهما كانت التجارب أو القصص الّتي ترويها فرديّة وخاصّة، لا مفرّ من أن تصير عامّة فتورِّط غرباء فيها: تلك هي معجزة الأدب؛ معجزته هي في أنّه يقول: «أنا أنت، وأنت أنا». ثانياً، أنا أبعد مَن يمكن أن أكون عن الكمال. لم يكن هذا هدفي يوماً في الأساس.

– رغم ذلك، تُظهرين أنّكِ قطعتِ شوطاً طويلاً.

– الشوط الّذي لا يزال في الأمام أطوَل. ينبغي لي فعل الكثير، لأنّ الرحلة إلى إنساننا الإنسانويّ صعبة، لا تنتهي. ولكن يحلو لي أن أعتقد أنّني على الدرب الصحيح.

– لماذا، إذاً، لا تزالين قابلة للعطب؟ أنتِ لا تجيبين عن هذا السؤال!

– أتظنّ أنّ الإنسانويّة تعني أن يصير المرء منيعاً لا يُقهر؟ لا أشتهي ذلك لنفسي قطّ، ولا لأيّ أحد. العطب برهان وجود. نحن نظلّ قابلين للعطب مهما فعلنا أو صرنا. لكنّ تعلُّمَ دروس الحياة يجعلنا أقلّ هشاشة. هذا كلّ ما في الأمر.

– حسناً. أكنتِ هشّة أم لم تكوني، أتمنّى ألّا تكّفي عن التحاور معي.

– ممتاز. أنا أيضاً أتمنّى ذلك.

– وأمرٌ أخير...

– ماذا؟

– (مبتسماً) أظنّ أنّ هذه بداية صداقةٍ جديدة وجميلة.

– بل بداية عالمٍ جديد وجميل يا صديقي الوسواس. عالم جديد... ولا أجمل.

رسالة إلى الشباب

«طريقان تشعّبتا في غابة، وأنا
اخترتُ الطريق الّتي نادراً ما تُسلَك،
وهذا ما أوجد الفرق كلّه.»
روبرت فروست

صحيحٌ أنّني محظوظة بكوني والدة شابّين استثنائيّين، لكنّي لستُ أمّاً لهما فحسب. هناك فتيان وفتيات كثيرون وكثيرات في لبنان والعالم، أعتبرهم أبنائي وبناتي. أعرف بعضاً منهم شخصيّاً، فيما لم ألتقِ يوماً ببعضهم الآخر وجهاً لوجه. أتحاور مع بعضٍ منهم بانتظام، فيما قد لا يؤتى لي قطّ الحديث مباشرةً مع بعضهم الآخر. يلجأ بعضٌ منهم إليّ للنصح، فيما لا أكفّ بدوري عن التعلّم من بعضهم الآخر. قد يكونون من المقرّبين، أو غرباء تماماً، لكنّهم أولادي في الحالَين، وقلبي يخفق في صدورهم. في ما يأتي وصاياي إليهم، في طريقهم نحو إنسانويّتهم:

1- **تجرّأوا** على الإيمان بأنفسكم. بقوّتكم. بأحلامكم. بطاقة إرادتكم. ليس هناك ما تعجزون عن تحقيقه إذا كنتم تريدون تحقيقه

فعلاً. كلّ شيء يبدأ هنا، في رؤوسكم، في حقيقة نظرتكم إلى أنفسكم. إن كنتم أنتم لا تصدّقون قدراتكم، فلن يصدّقها أحد مهما أتقنتم لعبة التصنّع. الثقة بالنفس ليست تمثيلاً ولا محض كلام: إنّها حاسّتكم السادسة. لا يعني ذلك أنّكم لن تواجهوا جداراً أو اثنين أو عشرة أو أكثر: يعني فقط أن تدركوا أنّ تلك الجدران ستنهار لا محالة، وأنّكم ستواصلون المسير.

2- **تجرّأوا** على المحاولة، ثمّ المحاولة ثانيةً، ثمّ المحاولة أشدّ: إذا كنتم تريدون أمراً، فانهضوا واعملوا جاهدين لنيله، بدلاً من الاكتفاء بالتمنّيات، أو بالشكوى من افتقاركم إليه. ليس لدى العالم ما يهديه إليكم: عليكم باستحقاقه وكسبه.

3- **تجرّأوا** على الضياع. هذا حقكّم. من حقكّم أيضاً أن تزلّوا، وتتعثّروا، وتقعوا. سامِحوا أنفسكم، ولكن لا تستسلموا. مسؤوليّتكم أن تعاوِدوا النهوض وتكملوا الرحلة. مسؤوليّتكم أن تتعلّموا من أغلاطكم وتتوقوا بعناد إلى الأفضل. افخروا بالندوب الّتي تغطّي جسدكم وذاكرتكم: هي الدليل على أنّكم أحياء وتمشون، لا ممدّدون أو جامدون في أمكنتكم.

4- **تجرّأوا** على المواجهة. سيكون لكم أعداء كثر في الطريق. أشخاص عديدون، بعضهم مقرّبون منكم، سيقولون لكم: «لن تستطيعوا» أو «هذا مستحيل». سوف يسخرون من طموحاتكم، يستخفّون بقدراتكم وينتقدون خياراتكم. سيفعلون كلّ ما في وسعهم، عمداً أو من غير قصد، لإقناعكم بأنّكم مخطئون. قد يكونون على حقّ؛ قد تكونون مخطئين فعلاً؛ ولكن من الأفضل أن ترتكبوا أخطاءً تشبهكم، من أن تتبنّوا خيارات الآخرين الجاهزة لكم، وإنْ كانت صحيحة. ليحفزْكم الخصوم على الإمعان في تحدّي ذواتكم. دافِعوا عن خياراتكم بكلّ ما أوتيتم من شراسة: هي أغلى ما تملكون.

5- **تجرّأوا** على امتلاك أنفسكم. أحِبّوا من تشاؤون. استخدِموا أجسادكم مثلما تريدون، وتمتّعوا بها، واحموها. اقنصوا حرّيتكم قنصاً. لا تساوموا على تلك الحرّية حتى لو عنى ذلك أن تكونوا وحيدين أحياناً. وتذكّروا: أهلكم لا يملكونكم. أقاربكم لا يملكونكم. جيرانكم لا يملكونكم. زعماؤكم السياسيّون والدينيّون لا يملكونكم. زملاؤكم ورؤساؤكم في العمل لا يملكونكم. حبيباتكم وأحبّاؤكنّ، عشيقاتكم وعشاقكنّ، لا يملكنكم/يملكونكنّ. في اختصار، أنتم، وحدكم، تملكون أنفسكم.

6- **تجرّأوا** على تحرير تقديركم لذواتكم ورأيكم في أنفسكم من أحكام المجتمع: لن تنعتقوا حقّاً إلّا عندما تكفّون عن القلق من مواقف الآخرين إذا فعلتم هذا الشيء أو قلتم ذاك. أيضاً، تحرّروا من المعايير الجماليّة الإرهابيّة الّتي تُفرَض عليكم وعلى أجسادكم. وتحرّروا خصوصاً من غسل الأدمغة الّذي تمارسه الأديان: إن كنتم تحتاجون إلى الإيمان، فليكنْ، ولكن ليس على حساب ذكائكم وكراماتكم وفكركم النقديّ، ولا لخدمة مصالح مرجع دينيّ يدعوكم إلى الكراهية أو الاستبعاد أو الاحتقار أو التمييز الجنسيّ أو العنصريّة أو حتى القتل. كونوا روحانيّين، لا دينيّين.

7- **تجرّأوا** على حفظ الجوع، جوعكم، حيّاً. تجرّأوا على الاستكشاف. على التوسّع في كلّ الاتجاهات. واظِبوا على تثقيف أنفسكم: المدارس والجامعات لا تكفي. تلهّفوا إلى المعرفة. كلّما ازداد جوعكم، ازددتم قوّة. اعثروا على مواهبكم، غذّوها واستثمروا فيها. اكسبوا مالكم بأنفسكم، لبّوا حاجاتكم بمفردكم. جدوا لأنفسكم مهنةً تُشغفون بها، لا محض وظيفة تمارسونها.

8- **تجرّأوا** على التواصل مع الآخرين. تعلّموا أن تنظروا إلى الناس أبعد من جنسهم وتوجّههم الجنسيّ وجنسيّتهم وعرقهم. ليس

للقلوب قضبان وفروج. ليست بيضاء أو سوداء، لبنانيّة أو أميركيّة أو هنديّة إلخ. كونوا منفتحين وفي المتناول. أيضاً، لا تخافوا النساء/الرجال، ولا تكرهوهنّ/هم. لا تخضعوا لهنّ/لهم، ولا تخضّعوهنّ/هم. لا تقلدوهنّ/هم، ولا تتعاملوا معهنّ/معهم بفوقيّة: الاختلاف لا يعني أفضل ولا أسوأ. لا تصدّقوا أولئك واللواتي يقولون إنّ «الرجل عدوّ المرأة»، وإنّ هناك حرباً مستعرة بين الجنسين منذ الأزل. هذه كلّها ترّهات. ليست القضيّة مَنْ يربح على مَنْ، بل أن يربح الواحد منكما الآخر. ممّا لا شكّ فيه أنّ العالم مليء بالسفلة والسافلات، لكنّ هذا ليس مبرّراً لتفقدوا إيمانكم بوجود النبلاء والنبيلات، الحلفاء والحليفات، الأصدقاء والصديقات. سوف تجدون «توأمكنّ/توأمكم» من دون الحاجة إلى بذل أيّ جهد للعثور عليها/ عليه، أعدكم بذلك. أو لعلّكم ستجدون نماذج مختلفة عنها/عنه خلال حياتكم. أما إذا لم تجدوها/ه، فلا بأس: سيكون لديكم أنفسكم دائماً.

9- **تجرّأوا** على الخوف، وعلى القفز رغم هذا الخوف. تجرّأوا أن تمنحوا ذواتكم، وأن تستعيدوها. تجرّأوا أن تصدّقوا أنّكم تستحقّون الأفضل (الأفضل بالنسبة إليكم) ولا تقبلوا بما هو أقّل. تجرّأوا أن تؤلموا، وأن تشعروا بالألم.

10- **تجرّأوا** على «دفع الثمن»، ثمن ما تريدونه. لا تتوهّموا أنّكم تستطيعون تخطّي النضال والتمتع بالمكاسب مباشرةً. كثيرون في هذا العالم ليسوا مستعدّين لـ«تقبيل الضفدع» إلّا إذا كانوا متأكّدين سلفاً من أنّه سيتحوّل إلى أمير/أميرة. كثيرون يبحثون عن الجنّيّ الّذي سيخرج من الفانوس ويقول لهم «شبّيك لبّيك». لكنّ هذا لن يحصل. الضفدع محض استعارة لانهزاميّتهم. وكلّما قبّلوه ازداد بشاعة.

11- **تجرّأوا** على إثارة الجدل. أعلِنوا آراءكم حتى عندما، بل خصوصاً عندما تكون هذه الآراء معاكسة للاتّجاه السائد.

12- **تجرّأوا** على تربية أطفالكم المستقبليّين بطريقة مختلفة: الأهل هم أحد أبرز الأسباب وراء وجود رجال عنيفين ونساء خاضعات. بدلاً من أن تقولوا لابنتكم إنّها فريسة، قولوا لابنكم إنّه ليس صيّاداً. بدلاً من أن تعلّموا ابنتكم السكوت، علِّموا ابنكم الإصغاء. بدلا من الاكتفاء بتنشئة ابنتكم على احترام نفسها، نشِّئوا أيضاً ابنكم على احترام المرأة. بدلاً من أن تمنعوا ابنتكم من ارتداء تلك التنّورة، أوضِحوا لابنكم أنّ التنّورة ليست دعوة إلى «التلطيش» ولا إلى التحرّش ولا إلى الجنس ولا إلى الاغتصاب. بدلاً من تحجيب ابنتكم، اشرحوا لابنكم أنّ المرأة أكثر من محض عورة. بدلاً من أن تبرهنوا لابنتكم أنّ الرجل خصم، برهِنوا لابنكم أنّ النساء حليفات قويّات وضروريّات. بدلاً من تربية ابنتكم على الحذر من الرجال، وابنكم على الحذر من النساء، ربّوهما على التقدير والحبّ والثقة المتبادلة.

13- **تجرّأوا** على اجتراح فرقٍ حولكم. كلّ إنسان يستطيع أن يسهم، وكلّ تغيير يبدأ بشخص واحد، هو كلّ منكم. لديكم القدرة على تحسين هذا العالم بشكل هائل من خلال التعاطف، والإصغاء، والعناية بالتفاصيل الصغيرة. أنتم مهمّون. أنتم تستطيعون. ساعِدوا الآخرين في معاركهم المحقّة بدلاً من خوض معارككم الخاصة فحسب. تورّطوا. كونوا معنيّين. ثمّة أحدٌ ما، في مكانٍ ما، يحتاج إليكم أنتم بالذات. عندما، في المرّة المقبلة، تجدون أنفسكم لامبالين، أغمِضوا عيونكم وتخيّلوا أنّكم استيقظتم لتكتشفوا أنّ طفلكم قد مات من البرد في جواركم. لا بدّ لهذه الصورة من أن تغيّر نظرتكم إلى الأمور. أمّا إذا لم تغيِّرها، فمن الأفضل لكم أن تؤمنوا بالجحيم: لا لأنّكم ذاهبون إلى هناك، بل لأنّكم هناك الآن.

14- **تجرّأوا** على التعبير عن أنفسكم. انظروا الناس عيناً بعين وقولوا لهم ما تفكّرون فيه. تجرّأوا أن تقولوا لا، وتجرّأوا أن تقولوا نعم.

اكتبوا بالسكّين المغروز في لحمكم. غنّوا بحنجرتكم المخنوقة. ارقصوا على زلازل قلوبكم. ارسموا بدمائكم النازفة. اصرخوا ما تجرؤون بالكاد على قوله همساً. لدى كلّ منكم ما يمنحه للكون، وهذا الكون متشوّق ومتعطّش إليه.

15- **تجرّأوا** على فتح عيونكم ومواجهة هاوياتكم بدلاً من الاكتفاء بانتظار اختفائها. ظلّوا واعين ومتيقّظين. فكِّروا واصنعوا أنفسكم، بدلاً من أن تُستدرَجوا إليها أو تنزلقوا نحوها انزلاقاً.

16- **تجرّأوا** على الحفر في حقيقتكم مهما بدت لكم قذرة. احفروا أعمق، احفروا أقوى. انبشوا واكشِفوا وعرّوا. آمِنوا بأنّ وراء القذارة شمساً جميلة تنتظر أظفاركم لتشرق.

17- **تجرّأوا** على الجنون. اقطعوا قيودكم، لا شرايينكم. لا تمتثلوا ولا تتشبّهوا بأحد. اعتزّوا باختلافاتكم واحتفوا بفردانيّتكم.

18- **تجرّأوا** على التغيير: تغيير اقتناعاتكم، آرائكم، مواقفكم وأذواقكم. تجرّأوا أن تتحوّلوا وتتحرّكوا. إلى فوق. إلى تحت. إلى الخارج. إلى الداخل. لا يهمّ. تحرّكوا!

19- **تجرّأوا** على النظر في المرآة والابتسام للطفل/الطفلة الّذي/الّتي كنتموه/ها في أحد الأيّام. خفّته/ها ستذكّركم بأنّكم تستطيعون أن تظلّوا خفيفين حتى آخر يوم من حياتكم.

20- أخيراً وليس آخراً، **تجرّأوا** على الحبّ. على الحبّ أفضل وأعنف وأوسع. تجرّأوا، خصوصاً، على حبّ أنفسكم.

أنتم تستحقّون ذلك.

خاتمة
الثورة الإنسانويّة

«يحلم الشاعر بتكوين بشريّةٍ جديدة،
لا بكتابة شيءٍ جديد فقط.»
أنسي الحاج

الآن، بعدما «اقترفتُ ما اقترفتُ»، أستطيع أن أعترف بالآتي: مذ شرعتُ في كتابة عملي النثريّ الأول، «هكذا قتلتُ شهرزاد» – الّذي استكشفتُ فيه موضوعات من مثل أحوال المرأة العربيّة والحرّية الجنسيّة والأنوثة والنسويّة والرقابة، كان في نيّتي إنجاز ثلاثيّة: على غرار لوحة فنّية مركّبة من ثلاثة أقسام، يعمل فيها القسم الثاني على مساندة الأوّل وإكماله (هذا ما حاولتُ فعله في «سوبرمان عربيّ»، الّذي تطرّقتُ فيه إلى تيمات الذكوريّة والنظام البطريركيّ والتمييز الجنسيّ والتطرّف والإلحاد)؛ على أن يلي الاثنين قسمٌ ثالث، يؤدّي دور صلة الوصل بين اللوحتين، اليسرى واليمنى، فيوحّدهما، ويتيح لهما أن تتكاملا، ويضيء على معانيهما وتناقضاتهما الدفينة، ويمنحهما خصوصاً هبة الهدف، أو الغاية المشتركة.

هذا ما تجسّده أفضل تجسيد، لوحة «حديقة المباهج الأرضيّة» للفنّان الهولنديّ هيرونيموس بوش: ففيما يصوّر القسم الأيسر مشهد الله معرِّفاً آدم إلى حوّاء في الجنّة (الشرارة المزعومة لسقوط الرجل المسكين، في ميثولوجيا التكوين)، وفيما يصف القسم الأيمن عذابات الجحيم (قصاص «السقطة»)، يمثّل القسم الأوسط الّذي يربطهما معاً مشهداً شبقيّاً بامتياز، تزيّنه كائنات عارية منغمسة في ممارسات شهوانيّة، ولكن بِـ«براءة» توحي للمتلقّي بحياة متحرّرة من مفهومَي الخطيئة والفضيلة؛ حياة لم تُفسِدها ثنائيّة الفردوس والنار: مكانٌ متناغم، «مملوء بهواء الحرّية المدوِّخ»، مثلما يصفه الناقد الأميركيّ بيتر بيغل.

تالياً، في مواجهةِ زعمِ بعض النقّاد الوعظيّين أنّ القسم الأوسط من اللوحة المذكورة هو ذو غاية «أخلاقيّة»، ويرمي إلى «التحذير من أخطار الانغماس في الملذّات»، أجدني منحازةً إلى تفسيرٍ مختلف تماماً، صادر عن محلّلين آخرين، ذوي رؤية أبعد وأقلّ حَرْفيّةً، يعتبره مخرجاً من الحلقة المفرغة للغواية (المتمثّلة في القسم الأيسر) والعقاب (المتمثّل في القسم الأيمن). يقنعني هذا التفسير أيضاً لأنّ عدداً كبيراً من الخبراء يؤكّدون أنّ هيرونيموس بوش قد رسم القسم الأوسط بعد إنجازه القسمين الأوّل والثاني، أي شاءه، على الأرجح، «خاتمة».

هذا المخرج من المأزق، ومن ابتزاز الصراع المفتعَل بين ضدّين مزعومَين (الخير والشرّ؛ النساء والرجال، المؤمنون والملحدون؛ الغربيّون «العلمانيّون» والعرب «المتطرّفون»؛ إلخ)، ليس إلّا توقاً طموحاً، آمل أن أكون قد حقّقتُه بدوري في «لوحتي الوسطى»

الخاصّة، أي هذا الكتاب الّذي، على غرار ما فعله الفنّان الهولندي، أنجزتُه زمنيّاً في ختام العمليّة، لا في منتصفها.

***

شئتُها ثلاثيّةً، إذاً.

ولكن، فيما كنتُ أعلم تماماً، وفي مرحلة مبكّرة، مادّة الكتابَين الأوّلَين، لم تكن لديّ أدنى فكرة عن مضمون العمل الثالث وبنيته، ولا، خصوصاً، عن هويّة المُخاطَب فيه. جلّ ما كنتُ أعرفه، أنّ عليه أن يمثّل نوعاً من خاتمة للخطاب الّذي سعيتُ جاهدةً إلى التعمّق فيه وإيصاله في العملَين السابقَين، خاتمة لها أن تشكّل في الآن نفسه فاتحة رحبة لمرحلة جديدة عنوانها الأمل: حيث هناك ضغوطٌ لا تُحتمَل، لا بدّ من أن يحدث انفجار. ولكن، ما الّذي ينبغي أن يلي الانفجار لا محالة؟ عمليّة إزالة الركام و«الجثث».

طويلاً تساءلتُ: «ترى، كيف يسعني أن أُزيل الركام، وأنظّف بقع الدماء، وأبدّد صدى الصرخات، وأعيد استجماع أشلاء الأجساد والعقول الّتي خلّفتُها ورائي؟ كيف يسعني أن أجد مخرجاً من جحيم الظلم الّتي دأبتُ على فضحها في العملَين الأوّلَين؟». صدقاً، لم أكن أعرف. لكنّ غموض عملية التنفيذ، والضباب الّذي كان يغلّفها، لم يزعجاني، ولم يثبطا عزيمتي. على العكس من ذلك، استفزّتني فكرة إيجاد ذلك المصبّ المجهول الّذي كان على كلماتي وأفكاري أن تتدفّق نحوه وتنصهر فيه. كنتُ مؤمنة بمسيرة تلك الكلمات والأفكار؛ كنتُ مؤمنة بقوّتها وأصالتها، ما جعلني على ثقة بأنّها سوف تجد سبيلها في الوقت المناسب إلى الضوء، وترشدني إليه.

***

ثمّ في أحد الأيّام، وسط نقاشٍ محتدم، في مدينة مغربيّة نائية، بيني وبين نادٍ للقراءة كان معظم الحاضرين فيه رجالاً ذوي أعمار وخلفيّات اجتماعيّة وثقافيّة متنوّعة، قرأوا كتابَيَّ السابقين بتمعّن، اكتشفتُ فجأةً الجواب الّذي كنتُ أنتظره بثقة، إذ على رغم التباين الظاهريّ بيننا، أنا وهؤلاء الرجال (رجالٌ من بلد محافظ، معروف بتقاليده البطريركيّة والدينيّة المتجذّرة)، أي على رغم وجود احتمال مرجّح جداً لنشوب «خلاف» فكريّ خلال الحوار، أدركتُ على حين غرّة أنّنا قد وصلنا إلى نقطةٍ في حديثنا – بعد تبادل لازمتَي «الحقّ عليكم» و«الحقّ معنا» اللتين لا مفرّ منهما – لم يعد ينظر الواحد منّا إلى الآخر، ويجادله، بناءً على منطق الـ«أنتم» ضدّ الـ«نحن»، بل كنّا نتفاعل، بكل بساطة، كبشر: بشر مختلفين في ما بينهم، أي نعم، ولكن متشابهين أيضاً إلى حدّ بعيد؛ أنداد، ولكن فريدين من نوعهم، كلٌّ على طريقته. لم أعد أنا المرأة، وهم الذكور. لم أعد أنا اللبنانيّة، وهم المغاربة؛ أنا الملحدة، وهم المسلمين المؤمنين؛ أنا النسويّة، وهم الذكوريّين... تلاشت التصنيفات والهرميّات والتحدّيات والتشكيكات. وجدنا أنفسنا عالقين في المتاهة نفسها، موحّدين تحت سماء واحدة، وتوقّع واحد، وحاجة واحدة: أن يجد كلٌّ منّا دربه إلى تلك «اللوحة الوسطى» الضائعة، حيث سنتمكّن أخيراً من تنفّس «هواء الحرّية المدوِّخ» الّذي كنّا جميعاً نتوق إليه.

قد يبدو غريباً للوهلة الأولى أن أعثر على الجواب في قلب المشكلة، ولكن، هل هذا غريب حقاً؟ الجواب، إذاً، كان في الغوص في التفرّعات نحو الجذر الواحد المشترك، أي الإنسان؛ في ارتقاء الفئات والأنواع والأجناس والجنسيّات والإيديولوجيّات نحو الذروة الواحدة المشتركة، أي، مجدّداً، الإنسان. الجواب عموديّ في الحالَين: الدرب صعوداً غير ممكن إلّا بالنزول إلى الأغوار، والعكس صحيح.

بدا هذا الاكتشاف سهلاً ومذهلاً في الآن نفسه، كمثل علاجٍ بسيط كان طوال الوقت تحت أنف الباحث، لكنّه كان عاجزاً عن رؤيته لانشغاله بعناصر أشدّ تعقيداً ظنّها أكثر أهمّية. أخيراً وجدتُ مُخاطَبي الثالث، مصبّاً لكلماتي، والمهرب الوحيد من كلّ الثنائيّات العنيفة والعقيمة والتمييزيّة الّتي سجنّا أنفسنا فيها.

«لوحتي الثالثة»، إذاً، سوف تكون عن الإنسان، أي عن كلّ واحدٍ منّا، وعنّا جميعاً، معاً وفي آن واحد.

***

ولكن، أيّ إنسان؟

بحثتُ طويلاً وعميقاً عن التعريف المثاليّ، عن المصطلح الوصفيّ الشامل الّذي يسعه أن يتضمّن كلّ الخصائص الّتي كنتُ أريد لهذا الإنسان أن يمثّلها، فظلّت صفة واحدة تلتمع في الرأس والشاشة، بإصرار وعناد؛ صفة واحدة اتّضح لي أنّها تختصر في كنهها، الجليّ والعسير معاً، اللائحة الكاملة للصفات الّتي كنتُ أحاول القبض عليها: الإنسان «الإنسانويّ».

لماذا الإنسان الإنسانويّ؟ لأنّ إنسانويّتنا، وحدها، تستطيع أن تقارب بيننا. وحدها تجعل جمعنا تحت راية واحدة ممكناً. وحدها تستطيع توحيد عائلتنا الإنسانيّة المشتّتة والمقسومة. وحدها تجعل المقارنة (وحتى «المفاضلة»، أجرؤ أن أقول) بيننا مقبولة، على العكس من اعتماد فروقاتنا الأخرى قاعدةً للتقييم. يصحّ أن نقول مثلاً: «فلان أكثر إنسانويّة من ذاك»؛ بينما من المهين أن نقول: «فلان أقلّ بياضاً من ذاك». الفرق بين المفاضلَتين أنّ الشكل الأوّل من التمييز قد يمثّل حافزاً نبيلاً لكي يصبح الشخص المعنيّ أكثر إنسانويّة، بينما الشكل الثاني يعكس هرميّة ازدرائيّة فحسب.

ما ينبغي لنا أن نفعله إذاً، بدلاً من محاولة طمس الاختلافات بين الناس أو نكرانها لمجاربة التمييز والظلم، هو استبدالها بوحدة قياس مشتركة جديرة بالاحترام، تخلق تقارباً فطريّاً غير مفتعل بينهم، وما وحدة القياس هذه سوى إنسانويّة كلّ واحد منّا.

مشكلة المنظومات الاجتماعيّة الّتي يقوم عليها عالمنا، أنّها مبنيّة على وحدات قياسيّة ظالمة ومنحازة ومصطنعة: المال، النفوذ، العرق، الجنس، الطبقة الاجتماعيّة، الميول الجنسيّة المسمّاة «طبيعيّة»، الأصل والفصل، وسواها. وقد أدّت جميعها في طبيعة الحال إلى نشوء هرميّات مُذِلّة. المطلوب أن نجرّد المنظومات الاجتماعيّة من هذه العناصر الاصطناعيّة، حتى تصير الإنسانويّة هي الطوبة، أو وحدة البناء الأساسيّة، في المجتمع.

قد يقول قائلٌ إنّ هذا ما حاولتْ معظم الأديان فعله. لكنّ التطبيق لم يكن، في أيّ دين، على مستوى التنظير؛ لا بل أوجدت غالبيّة الأديان بدورها وحدات قياس مصطنعة ومُجحفة، فضلاً عن لجوئها إلى أساليب استدراجٍ وإقناعٍ مناوِرة أو ابتزازيّة أو عنفيّة، وتسبّبها بأضرار جانبيّة كارثيّة، لم يعد في وسعنا، كبشر، تحمّل تكلفتها الباهظة.

الإنسانويّة كوحدة بناءٍ؛ الإنسان الإنسانويّ كمحور: كلّ ما عداهما، أكسسوارات وملاحق.

قام تاريخ الحضارات على نسف مفهوم الإنسان كمركز للكون. وقد أسهم تطوّر العلوم والفلسفة، وحتى اللاهوت، في تجريده من هذا «الادّعاء». ولكن في موازاة هذا النسف (وبمعزلٍ عن أيّ حكم قيمة عليه)، لا مفرّ من أن نُقرّ بأنّ كلّ تفكيرٍ في الكون يفقد معناه، وغايته، وحتى صدقيّته، إن لم يكن الإنسان هو محوره. لا يمكن التأمّل في العالم بمعزلٍ عن إنسانٍ يتأمّل في ذاته والعالم. إنّ وعينا للكون

ولكلّ ما فيه ولكلّ ما يتحرّك داخله، موصولٌ حكماً بوعينا لأنفسنا. هذه حقيقة لا تتغيّر بناءً على العرق أو الجنس أو الجنسيّة أو الطبقة أو الإيديولوجيا أو أيّ عامل آخر.

الإنسان هو الوعي القابض على الكون. وهو، بصفته هذا الوعي، العنصر الأقوى فيه. لكنّ المحرّك الحقيقيّ هو الإنسان الإنسانويّ. وحده يستطيع أن يستثمر هذا الوعي ويطوّره. وحده يستطيع أن يحرّر المنظومات الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، الخ.، من الحاجة إلى الهرميّات القائمة، أو يستطيع أن يعيد النظر في هذه الهرميّات ويعمل على تحسينها وترقيتها. مجدّداً، الدين هو إحدى تلك المنظومات الّتي فرضت على الإنسان هرميّة مماثلة. بغية كسر الحلقة المفرغة، على الإنسان أن يكسر بدايةً قيود هذه الهرميّة وسواها، وأن يعتمد بدلاً منها، كوحدة قياس وحيدة، حقيقته وهويّته وطبيعته الإنسانويّة.

***

منذ الصِغَر، لطالما حلم جون بأن يصير طبيباً. كان يتكلّم عن الأمر بلا كللٍ أمام لكلّ من له أذنان صاغيتان حوله، وكانت لعبته المفضّلة، طفلاً، أن يتخيّل أنّه يعمل في قسم الطوارئ في أحد المستشفيات. عندما ظهرتْ أولى حالات فيروس الإيبولا في سييراليون، كان جون قد تخرّج لتوّه في كلّيّة الطبّ. من دون لحظة تردّد، تطوّع في إحدى المنظمات الإنسانيّة، وسافر إلى فريتاون، رغم كلّ الأخطار الّتي سوف يواجهها، ورغم تحذيرات عائلته وأصدقائه. كان يدرك أنّه يستطيع المساعدة: لم يكن الأمر يتطلّب أكثر من هذا الإدراك، لكي يتّخذ جون قراره.

أمّا مارك، فكان من جهته ذا طبع عدوانيّ ومشاكس منذ أيّام المدرسة (هو يفضّل استخدام صفة «قبضاي»). بعدما تابع دراسات

في استراتيجيّات الأمن وفي علم النفس الإجراميّ، تقدّم بطلب انتساب إلى وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة، فقُبِلَ طلبه على الفور. وسرعان ما نُقل إلى فرع الاستجواب بسبب قوّة طباعه وقدرته العالية على التكيّف ومعدّل ذكائه المرتفع وانعدام مشاعر التعاطف لديه. أثناء عمله كمستجوِب، تحديداً لمشتبه فيهم في عمليّات إرهابيّة من منطقة الشرق الأوسط، لجأ مارك غالباً إلى استخدام أساليب تعذيب وحشيّة، على غرار الضرب المبرّح والإغراق الوهميّ، وحتى الاعتداءات الجنسيّة. هو يعتبر التعذيب جزءاً من وظيفته، كما أنّه مقتنع شديد الاقتناع بأنّه كان يخدم مصالح وطنه، وقضيّة «السلام العالميّ».

النموذجان الإنسانيّان المُستعرَضان أعلاه مستوحَيان من حوادث حقيقيّة شهدها العالم سنة 2014: انتشار وباء الإيبولا في غرب أفريقيا، وصدور تقرير مجلس الشيوخ الأميركيّ عن وسائل التعذيب الّتي لجأت إليها وكالة الاستخبارات المركزيّة بعد حوادث 11 أيلول. لقد نشأ كلّ من جون ومارك في ظروف تبدو للوهلة الأولى «طبيعيّة»، في كنف عائلتَين «نموذجيّتَين». هل لدى جون ومارك طبيعتان مختلفتان إذاً؟ هل هما «هكذا» بالفطرة؟ هل وُلد جون طيّباً، بينما وُلد مارك ساديّاً؟

(سؤال على الهامش: ما الّذي يبرهن أكثر عن قوّة شخصية: مواجهة فيروس قاتل أم تعذيب معتقلين عُزَّل؟)

هل الطبيعة البشريّة خاضعة للثنائيّات: أبيض أو أسود، خيرٌ أو شرّ، هذا أو ذاك؟ أم هناك طبيعة واحدة تتألّف من مجموعة خصائص محدّدة (جيّدة وسيّئة) تتجلّى في حياة الإنسان، بناءً على الظروف الّتي تدفعها في وجهة معيّنة؟ هل يمكن جون أن يصير «شرّيراً» يوماً

ما؟ هل يمكن مارك أن يصبح حنوناً في المستقبل؟ هل يُعقل أن يكون جون، مثلاً، يتمتّع بتعذيب القطط سرّاً، رغم تعريض حياته للخطر لإنقاذ مرضاه؟ هل يُعقل أن يكون مارك، مثلاً، يعتني بجاره المسنّ والمريض مساءً، بعد ارتكابه أعمال تعذيب وحشيّة خلال النهار؟ هل جميع هذه الاحتمالات ممكنة؟

في اختصار: هل يوجد إنسان «في الدرجة صفر»، أم نحن نأتي جميعاً مع خصائص محدّدة محفورة حفراً في جيناتنا؟ لقد انحنى كلّ الفلاسفة على هذا السؤال، مقدّمين جوابهم النظري عنه، بدعم من اكتشافاتٍ في مجالات متنوّعة كالتاريخ والأنتروبولوجيا وعلم الاجتماع والبيولوجيا وعلم النفس، وحتى السياسة. جدال «التربية في مواجهة الفِطرة» جدالٌ مفتوح ولن يُختتم قريباً. شخصياً، يعجبني اقتراح جان جاك روسو القائم على فكرة الإنسان «المتوحّش النبيل»، القابل للإفساد، لكنّه ليس فاسداً بطبيعته. ولكن فيما لنا أن نُعجَب أو لا نُعجَب، أن نوافق أو نعارِض، أن نقبل أو نرفض، لا نستطيع أن نكون جازمين في الموضوع. فهذه كلّها محض نظريّات، والنظريّات تترافق حكماً مع نظريّات مضادّة، مهما كانت الأولى متينة ومدعومة بالبراهين. الشيء الوحيد الأكيد، أنّنا نتأثّر حكماً بتجاربنا، أكنّا بالفطرة طيّبين أم أشراراً. لا أقول ذلك طبعاً لكي أبرّر للقساة أفعالهم، أو لأبخس اللطفاء قدْرهم. بل على العكس من ذلك، غالباً ما أجدني أشكّك في منطق أولئك الّذين يفسّرون الأعمال الإجراميّة بأنّ مرتكبيها يعانون «أمراضاً عقليّة»، وهي حجّة بات يستخدمها محامو الدفاع في شكل أوتوماتيكيّ. ولكن، على المقلب الآخر، لا مفرّ من أن نسأل: مَن يعرف ما الّذي تخفيه نشأة «طبيعيّة» وعائلة «نموذجيّة»؟ مَن يستطيع أن يقتفي أثر كلّ المنعطفات والحوادث والندوب في حياة

كلٍّ من جون ومارك، الّتي أدّت ربّما إلى قيامهما بما قاما به، وإلى صيرورتهما الحاليّة؟

أسئلة وأسئلة لا تُحصى، وليس من جوابٍ شافٍ، على غرار ما يقوله البحّار العجوز في قصيدة كولريدج الشهيرة: «مياهٌ مياهٌ في كلّ مكان، وليس من نقطة صالحة للشرب». لكنّ هدف هذا الكتاب ليس اتخاذ موقف من هذه المسائل. هو ليس معنيّاً بالطبيعة الإنسانيّة، بل بالطبيعة الإنسانويّة، أي تلك النقطة الّتي تندمج فيها التربية مع الفطرة فتروحان تعملان معاً بدلاً من أن تحارب الواحدة منهما الأخرى. إذا كانت خصائص الطبيعة الإنسانيّة موضع جدل، فإنّ خصائص الطبيعة الإنسانويّة، على العكس من ذلك، واضحة ومتعارَف عليها ولا لبس فيها، على المستويين اللغويّ والأخلاقيّ، وهي خصائص نبيلة. وفي وسعنا جميعاً أن نملكها، أو أن نسعى في الأقلّ إلى اكتسابها.

مما لا شكّ فيه أنّ جون ومارك ينتميان إلى الجنس البشريّ: تلك هي نقطة انطلاقنا جميعاً. ولكن فيما ارتقى جون بطبيعته الإنسانيّة إلى الطبيعة الإنسانويّة، لم يفعل مارك ذلك. يمكن قول الشيء نفسه عن عناصر الدولة الإسلاميّة وطالبان وبوكو حرام والقاعدة وأمثالهم في تاريخ البشريّة، مما قد يجيب، إلى حدّ ما، عن الأسئلة المطروحة في بداية هذا الكتاب.

قد يعترض البعض قائلين إنّ هذا الانتقال إلى المرحلة الإنسانويّة مرتبط بظروف اجتماعيّة ونفسيّة واقتصاديّة وثقافيّة قد تسانده وتسهم في بلورته، أو تعوقه وتؤخّره. ولكن ليست هذه هي القضيّة: القضيّة هي «الطاقة» الإنسانويّة الكامنة فينا، وجميعنا نملكها بالتساوي، بمعزل عن أفعالنا. الافتراض أنّنا نملكها يجعل عواقب أفعالنا (وحتى شخصيّاتنا) قابلة للتغيير أو للانعكاس، أيّ إنّه

افتراض يشيع الأمل. وهو خصوصاً يحول دون استسلامنا، وقولنا أموراً من نوع: «هكذا أنا، ليس في وسعي فعل شيء في هذا الصدد». بلى، تستطيع، لكنّك ربّما لا تريد، أو لستَ جاهزاً بعد، أو لعلّ ظروفكَ الراهنة ليست داعمة أو مشجِّعة. لكنّ طاقتكَ الإنسانويّة موجودة: غير مستثمَرة لكنّها موجودة. مُهمَلة لكنّها موجودة. موضوعة على الرفّ لكنّها موجودة.

من البديهيّ أنّ تصريحاً مماثلاً يستلزم ضمناً أن يكون الإنسان الإنسانويّ «راشداً». لا أعني بالرشد هنا سنّ الحادية والعشرين القانونيّة، بل السنّ الّتي يحصّل فيها الإنسان القدرة على التفكير والتصرّف باستقلاليّة. قد يحدث ذلك قبل الحادية والعشرين، أو بعدها بكثير، بحسب الظروف. وفيما أُدركُ مدى نسبية مفهوم كـ«الاستقلالية»، وكيف تكون أحياناً قراراتٌ أو آراءٌ أو أفعال مستقلّةً في الظاهر، نتيجةَ تأثيرات خفيّة لا واعية أو غسل دماغ؛ أؤمن أيضاً بأنّه إذا سبق اتّخاذ تلك القرارات أو اعتماد تلك الآراء أو القيام بتلك الأمور حدٌّ أدنى من المساءلة الجريئة، وإذا كان صاحبها قادراً على الدفاع عنها بأدوات العقل والمنطق، مبرهناً بذلك عن نضج فكري، يمكن القول إنّه مستقلّ بالحدّ الأدنى المطلوب.

هنا أيضاً، قد يعترض أحدهم قائلاً إنّ تحصيل هذا النضج هو بدوره مُنتَج التربية، وقد يتعثّر تالياً لدى البعض بسبب ظروف حياتهم. لكنّي لا أتكلّم على المرحلة الّتي كنّا فيها أطفالاً خاضعين لأوامر والدَيْنا أو إرشادات معلّمينا في المدرسة أو تأثيرات الكهنة والشيوخ حولنا، ما يجعلنا تالياً غير قابلين لـ«المحاسبة». نحن طبعاً نظلّ معرَّضين لتأثيرات محيطنا (بدرجات مختلفة)، لكنّي أتكلّم على المرحلة الّتي بتنا نتفاعل فيها مع العالم مباشرةً، وجهاً لوجه، من دون وسيط أو مخفِّف للصدمات؛ مرحلة نختبر فيها الحياة والناس

بأنفسنا، ونستطيع، إذا شئنا، التحكّم بأفعالنا وردود أفعالنا؛ مرحلة نقرّر فيها نحن ماذا نقرأ، ومَن نعاشر، وكيف نؤدّي عملنا ونُدير علاقاتنا؛ مرحلة مهّدت لها أخطاء كثيرة تعلّمنا منها دروساً مفيدة، أو اكتسبنا جرّاءها ندوباً لا تُقدَّر بثمن.

في اختصار، أنا أتكلّم على المرحلة الّتي صار فيها «الأمر في يدنا»: قد يبدو قولٌ مماثل تبسيطيّاً (أو مجحفاً بالنسبة إلى محترفي الهرب من المسؤوليّة)، لكنّه قولٌ فعّال وحقيقيّ مهما أوحى بالقساوة. جميعنا نملك امتيازات وعوائق، بطرق ومستويات مختلفة. لكلّ واحد منا أعداؤه وحلفاؤه، بأسماء وأشكال متنوّعة. غالباً ما نعجز عن قتل هؤلاء الأعداء من دون قتل جزءٍ منّا معهم. لكنّ التحدّي الحقيقيّ لا يكمن في قتلهم، بل في مواجهتهم والتصدّي لهم بمساعدة حلفائنا (أي العناصر الإيجابيّة في شخصيّتنا وحياتنا) وتحويلهم إلى حوافز: ذلك أنّ الإنسان الإنسانويّ ليس ضحيّة جيناته، بل رئيس أوركستراها. الإنسان الإنسانويّ ليس «مخلوق» ظروفه، بل خالقها ومحوّلها.

***

للوهلة الأولى، قد لا يبدو الرابط الّذي أزعمه بين الجنس الثالث والكتابَين السابقَين واضحاً. قد يسأل سائل: أين الغضب؟ أين النقمة والعصيان؟ ترى، هل تعبتْ الكاتبة؟ هل عدلتْ عن الكفاح؟ هل تحوّلتْ فجأة من «مجنونة» إلى «حكيمة وعاقلة»؟

لا، أنا لم أتعب البتّة، وبالتأكيد لم أعدل عن الكفاح. الغضب والنقمة والعصيان كلّها هنا، في هذا العمل الجديد، ولعلّها أشدّ ناريةً من ذي قبل. لكنّ الغضب أخذ شكلاً آخر، أراه أكثر فاعليّة، وأكثر قدرة على «التخريب». أمّا النقمة، فقد استثمرتُها في سعيي إلى بصيص أمل. عصياني لهذا العالم الظالم، بات يشمل أيضاً عصياني

لذاتي، ولما هو «متوقَّع» منّي، ولأخطاء الماضي (أمّا أخطاء المستقبل، فشأنٌ آخر).

ثمّ ملاحظةٌ أخيرة: حسبي أنّني لم أكن يوماً على هذا القدْر من الجنون.

من جهة أخرى، يمكن أولئك الّذين لا يجدون أيّ عنصر مشترك أو خطّ جامع بين هذا الكتاب والكتابَين النثريّين الأوّلين، أن يكونوا بدورهم على حقّ. لكنّ المسألة، في الحالين، ثانويّة. أكان هذا الكتاب «لوحة ثالثة» أم لم يكن، السؤال الحقيقيّ الّذي يودّ أن يطرحه على متلقّيه هو الآتي: هل يتضمّن اقتراحاً جديراً، وقابلاً للتنفيذ؟

لقد برهنتم – أنتم يا قرّائي الأحبّاء في لبنان والعالم العربيّ وخارجه – عن صبرٍ لا حدود له حيال كتاباتي على مرّ السنوات، وأظهرتم اهتماماً كريماً بها، لم يكفّ يوماً عن إلهامي وتشجيعي ودفعي قدماً. لكنّي، بينما كنتُ أعبّر، في تلك الكتابات، بأكثر ما أوتيتُ من شفافيّة، عن سخطي حيال الظلم والتخلف واللامساواة والتمييز والنظم البطريركيّة والمعايير المزدوجة الفاضحة الّتي نعانيها ونمارسها على السواء، كنتُ دوماً أتخيّلكم تسألونني بلطف: «نفهم غضبكِ، نشاركِكِ النقمة، ونحترم عصيانكِ، لكن أين المخرج من هنا؟».

حقّاً، أين المخرج؟ أَفي مواصلة «النقّ» وسفك الصور النمطيّة والكليشيهات؟ لا. هذه المرّة لم أرغب في أن تكون هناك جرائم ولا ضحايا. القاتل الشاطر يعرف متى يعتزل المهنة. وهو يعرف، خصوصاً، أنّ عليه «التكفير» عمّا جنته كلماته (ليس بالمعنى الدينيّ طبعاً): لا التكفير النابع من ندم وتوبة، على الإطلاق؛ بل ذاك النابع من الرغبة الصادقة في اقتراح حيوات بديلة، مكان تلك الّتي سُفِكت، لكي يكون لتلك الجرائم الرمزيّة والمعنويّة مغزى وغاية، فتؤدّي – على ما

آمل – إلى انبعاث عالم جديد، ممكن، يصون كراماتنا، على العكس من هذا العالم المدمَّر والمدمِّر الّذي نعيش فيه؛ وإلى انبعاث إنسان جديد، ممكن، بدلاً من هذا الإنسان المدمَّر والمدمِّر الّذي يتكاثر من حولنا: ذلك هو، بكلّ تواضع، اقتراح هذا الكتاب. تلك هي الثورة الحقيقيّة الّتي أرى أنّ علينا جميعاً – نساءً ورجالاً، عرباً وغربيّين، متديّنين ومشكّكين – شنّها وتحقيقها: لا الثورة السياسيّة، ولا الثورة الاجتماعيّة، ولا الثورة الاقتصاديّة، ولا الثورة الثقافيّة، إلخ: بل الثورة الإنسانويّة، أي الثورات جميعها معاً.

***

ربما حدستُم مِمّا سبق أنّ هذا أشدّ أعمالي «طموحاً» إلى الآن. هل سيفي بالمُراد؟

هاكم جوابي الوحيد: أجل. لأنّ الإنسان الإنسانويّ «أكبر». لأنّي أؤمن بإنسانٍ إنسانوي «واحدٍ جامعٍ للكلّ». إنّه الـ«إيثاكا» الّتي ينبغي لنا أن نبلغها؛ إنّه «ما ليس جحيماً» في قلب الجحيم؛ إنّه الكفاح النبيل المتضمَّن في كلّ كلمة وكلّ قصّة. الإنسان الإنسانويّ حقيقتي، حقيقتنا. وأنا مقتنعة بأنّه، على العكس من الآلهة الأخرى، لن يخيّبنا.

ربّما، بواسطة هذا الكتاب، أقدّم مرافعتي الأخيرة، وأتقاعد.

أقول: ربّما.

شكر وتقدير

بدايةً، أودّ أن أعبّر عن شكري العميق للأصدقاء الرائعين الّذين قرأوا الجنس الثالث أو أقساماً منه، وأشاروا الى هناته ونقاط قوّته. هؤلاء هم، بالترتيب الألفبائي: حاتم بديع، جواد بولس، شونا جولي، طوني داوود، منى رحّال، بشير رمضان، أوسكار زغبي، زينة سلوان، جويل عطالله، عقل العويط، رؤوف قبيسي، إبراهيم مهنّا، وكارول وهبة.

ثانياً، أديـن بالعرفان لكلّ الأحبّة الّذين أنعمت عليَّ الحياة بهم، والّذين أحاطوني بعنايتهم واهتمامهم بينما كنت أهجس بهذا الكتاب، غير آبهة بأيّ شيء وبأيّ أحد. صبرهم ودفؤهم كانا نبع تشجيع لا ينضب.

أيضاً، أشكر حلفاء وعيي الّذين دأبوا على إيقاظي في الثالثة صباحاً من كلّ يوم خلال السنة الفائتة من دون الحاجة الى منبّه، وجعلوني أقفز من السرير بحماسة لكي أجلس وأفكّر وأشعر وأكتب. إنّها، بكلّ بساطة، معجزة، بالنسبة الى شخص يعشق النوم بقدْري.

ختاماً، أشكر كلّ مَن وكلّ ما ألهمني وحفّزني خلال هذه الرحلة المتواصلة نحو إنسانيّتي: الكتب، الأفلام، الأغنيات، الأماكن، رفاق الدرب، عابري السبيل، الألم الّذي شهدتُ عليه والألم الّذي عانيتُه؛

وخصوصاً أشكركم أنتم، يا قرّائي الأعزّاء، لأنكم تدفعونني الى تحدّي ذاتي مع كلّ عمل جديد: إذا كان ثمّة جمالٌ في هذه الصفحات، فهو عطيّة منكم.

أمرٌ أخير: هذا الكتاب، على غرار سابقيه ممّا أنتجتُ، «ناقص» بالضرورة. أنا في الحقيقة لا أعرف كيف يُنهي المؤلّفون كتبهم. شخصيّاً، لم أتمكّن يوماً من إنهائها. جلّ ما أفعله هو أنّي أقرّر التخلّي عنها في مرحلة ما، وأطردها من المنزل، كي لا تصير ابناً بلغ الأربعين من العمر ولا يزال يعيش في قبو بيتي. تالياً، أرجو أن تغفروا الأجزاء الناقصة في هذا العمل. سيكون عليه أن يتعلّم مواجهة العالم على رغم علله، على غرارنا جميعاً.

لا تتردّدوا في التواصل مع المؤلِّفة ومشاركتها تعليقاتكم وتجاربكم

عبر البريد الإلكتروني:

contact@joumanahaddad.com

عبر الفايسبوك:

https://www.facebook.com/JoumanaHaddadOfficial

عبر تويتر:

@joumana333

المحتويات

مقدّمة لا بدّ منها 9

فاتحة: نشيد أفلاطون 21

رحلة المُحارِب 27

القصّة: قاتلي الخفيّ 29

المَقصِد: قمّة جبل 39

المُحاوَرة: لِمَ الحرب؟ 45

وصيّة أفلاطون: أن تكوني أو أن تصيري 53

رحلة الصادق 55

القصّة: الشبحُ الّذي لم أرَ 57

المَقصِد: نادٍ للتعرّي 65

المُحاوَرة: لِمَ الصدق؟ 71

وصيّة أفلاطون: أن تمثّلي أو أن تحيي 77

رحلة المفكّر 79

القصّة: كان اسمها وفاء 81

المَقصِد: متاهة 89

المُحاوَرة: لِمَ التفكير؟ 95

وصيّة أفلاطون: أن تَرِثي أو أن تعثري 103

رحلة المُنصِت 105
القصّة: أوّل حبّتَي رمل في حياتي........ 107
المَقصد: كتاب........ 113
المُحاوَرة: لِمَ الإنصات؟........ 119
وصيّة أفلاطون: أن تنحسري أو أن ترحبي........ 125

رحلة المتعاطِف 127
القصّة: ليلة فقأتُ الدمّلة........ 129
المَقصِد: جسر........ 135
المُحاوَرة: لِمَ التعاطف؟ 141
وصيّة أفلاطون: أن تتجاهلي أو أن تهتمّي........ 147

رحلة الأبيّ........ 149
القصّة: مدام سترايسند وأنا........ 151
المَقصِد: مرآة........ 159
المُحاوَرة: لِمَ الإباء؟........ 165
وصيّة أفلاطون: هم أو أنا 171

رحلة المتمرّد 173
القصّة: الفعل المحرَّم 175
المَقصِد: دغل 181
المُحاوَرة: لِمَ التمرّد؟ 187
وصيّة أفلاطون: أن تُذعني أو أن تقاوِمي 193

مُحاوَرة الوداع 195
رسالة إلى الشباب........ 201
خاتمة: الثورة الإنسانويّة 207
شكر وتقدير 221

الجنس الثالث — هل قول ما أقوله، يتطلّب، حقّاً، قدراً عالياً من «الجرأة»؟ هل الاعتراف بما نخشى الكشف عنه، أو حتى بما «نخجل» به، يحتاج إلى «شجاعة»؟

لقد تخطّيتُ هذا السؤال منذ وقت بعيد. الآن، عندما أكتب، لا يعنيني إلّا سبر أغواري واستكشاف المزيد من الطبقات التي تكوّنني. لا أرى الخطوط الحمر أمامي، لا أسمع التحذيرات من حولي، ولا أبالي بالألغام التي قد تنفجر تحت قدمَيّ. جلّ ما أفعله هو أنّي أتربّص بذاتي، ثمّ أنقضّ عليها وأقشّرها حتى تصير عزلاء تماماً على الورق. آنذاك، أكون أنا المتلصّصة والمستعرية في آنٍ واحد، المأدبة وصاحبة الدعوة، مفترسة نفسي وطريدتها. وكلّما انفجر بي لغمٌ انتشيت، لأنّي بذلك أمنح القارئات والقرّاء أشلاء لحمي الحيّ.

تلك الأشلاء هي حقيقتي، هي كلماتي، وهي هديّتي المتواضعة إليكنّ، إليكم، في هذا الكتاب...

وهي، أيضاً، فخاخي.

«هذا الكتاب صعقةٌ كهربائية»

— بول أوستر


© مايا علم الدين

جمانة حداد — شاعرة وكاتبة لبنانيّة حازت جوائز عربيّة وعالميّة عدّة، فضلاً عن كونها صحافيّة ومترجمة وأستاذة جامعيّة. تشغل منصب المسؤولة عن الصفحة الثقافية في جريدة «النهار» اللبنانيّة، وتعلّم الكتابة الإبداعيّة في الجامعة اللبنانيّة الأميركيّة في بيروت. هي ناشطة في مجال حقوق المرأة. اختارتها مجلة «أرابيان بيزنس» للسنتين الأخيرتين على التوالي واحدةً من المئة امرأة عربيّة الأكثر نفوذاً في العالم، بسبب نشاطها الثقافيّ والاجتماعيّ. من أعمالها «عودة ليليت»، «سيجيء الموت وستكون له عيناك»، «هكذا قتلتُ شهرزاد»، «سوبرمان عربيّ» و«قفص».

ISBN 978-614-438-383-4


9 786144 383834

نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان